الشاهدات

رأساً على عقب

رواية

راهيم حسّاوي

دار العين للنشر

الشاهدات رأساً على عقب

(رواية)

راهيم حساوي

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس:٢٣٩٦٢٤٧٦

E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

لوحة الغلاف: ايمار حميدي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٥٩٨٢/٢٠١٣

I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 243 – 7

الشاهدات

رأساً على عقب

رواية

راهيم حساوي

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٤٣ ٧

١-

أ- العنوان

رقم الإيداع / ١٥٩٨٢ / ٢٠١٣

الإهداء

إلى الذين لا أعرفهم ولا يعرفونني

1

إنّ للبول فلسفةً وحكمةً...

والتبوّل عزاء الحزانى ونشوة السعداء...

فكلّما كنتُ أشعر بالحزن، أخرج إلى البعيد حيثُ العراء، فأجلس على تلك الصخرة المزروعة فوق مرتفعٍ بسيطٍ، وأبول حتى آخر قطرةٍ، وأعود خفيفاً كأنّي قد تخلصتُ من بعضٍ حزني.

كان لقائي الأوّل بمنار في صالون الحلاقة، كان الوقت مساءً، أذكر ذاك المساء تماماً، كأنّه حرفٌ من حروف الذاكرة التي ليس بوسعها أن تتنفّس أيّة صورةٍ دون أن تمرّ من تحت شرفة ذلك الحرف.

بقعة ضوء سقطتْ من السماء على المدينة، وظلّتْ تنحسر وتضيق رويداً رويداً إلى أن استقرّتْ على قدْر مساحة صالون الحلاقة.

لم يكن شَعر رأسي طويلاً في ذلك المساء، لكنّ شيئاً ما يشبه الشيخوخة قد أصابني.

قمتُ بالخروج إلى أحد صالونات الحلاقة، كي أَمحو الحالة التي أنا بها ببعض الوقت الذي ينتظرني على كرسي الحلاقة وعلى سطح المرايا وفي صوت المقصّ وأثر رذاذ الماء.

لم يكن دماغي معطوباً، لكنه كان متحرراً من كل ما هو ثابت، كان مثل المسافر بين مدينتين بعيدتين عن بعضهما.

دخلتُ صالون الحلاقة، وأنا مجردٌ من كلّ ليونة الوجوه ودلالات العيون، وكأنّ حواسّي مصابةٌ بشيءٍ من الخدَر، أو أنّها أدركتْ أنّ صاحبها غير آبهٍ بوظائفها.

ألقيتُ التحية بإشارة من يدي دونَ أن أوقظ فمي وأتباعه، كي لا أكسر الصمت الذي كان مستلقياً داخل الصالون بأثوابٍ فضفاضة تليق بقداسة الصمت، كان زبونان داخل الصالون، واحدٌ على كرسي الحلاقة، وكان الآخرُ يتصفّح مجلةَ قديمةَ ذاتَ أوراق مائلة للصفرة، كان غلافها مُهترئاً بعض الشيء، أمّا الحلاّق؛ فكان يُجري مكالمةً هاتفيّةً، وكان يتحدّث بصوتٍ منخفض، و لم أعرف لِمَن كانتْ تلك الابتسامة التي خرجتْ من وجههِ، أهي لي أم للشخص الذي كان يتحدّث معه عبرَ الهاتف!؟

وتساءَلتُ في نفسي: هل بإمكان الابتسامة أن تتجاوز الحضور لتحطّ في الغياب!؟

وبدلاً من أن أرتّب تساؤلاتي التي هبطتْ عليّ وأنا غارقٌ في وجهي عبرَ مرآة الصالون، راحت الأجوبة ترتّب أمكنةً لها في داخلي، ريثما تأتيها تساؤلاتٌ ترضاها وتليق بها.

لم يكن يدرك الشخص الذي يتحدّث مع الحلاّق عبر الهاتف ما يدور من موجات انتظارٍ داخل الصالون، و لم يكن بمقدور الحلاّق أن يُشعره بأنّ لديه زبائنَ ينتظرونَ إنهاء المكالمة كي يحلقوا شعرهم ويمضوا حيث مكان آخر ينتظرهم، ليدخلوا بوابةً أخرى من بوابات الانتظار الذي لا ينتهي إلاّ عند شعور المرء بعدم رغبته في الحياة.

زَفَرَ الزبون الذي على كرسي الحلاقة في وجه المرآة زفرةً واضحةً بسبب انشغال الحلاّق عنه، أو ربّما بسبب تحديقه العميق في وجهه عبر المرآة، والزبون الآخر لم يرفع رأسه بعدُ عن صفحة المجلة التي كانتْ بين يدَيه، وما كان ليقلبَ الصفحة التي أطال التحديق فيها بوجه متوتر، ولقد لاحظت هذا التوتر من خلال ضغطه على فكيه مع زمِّه لشفتيه، أمّا أنا فرُحتُ أتأمّل سلّة الشَّعر الراكنة في زاوية الصالون، وتساءَلتُ إن كان بإمكان كلّ زبونٍ أن يتعرّف على كلّ شعرةٍ من شعره من بين ذاك الشَّعر المُتراكِم في تلك السلة!؟

أمرٌ مستحيلٌ ويشبه الحياة!!!

مرّت الدقائق رغم عدم وجود ساعة حائط داخل الصالون، لكن الزفرة الثانية التي أطلقها الزبون رسمتْ دائرةً على وجه المرآة تشبه ساعةً بعقاربَ بطيئة الدوران، و لم أكن أبذل مجهوداً في رؤيتي لكلّ ما يحدث داخل الصالون، ففي ذات اللحظة كنتُ أرى ضيق الزبون الذي يزفر في المرآة، والزبون الذي يشبه تمثالاً حجرياً بين يدَيه أوراق مجلةٍ كجناحَي غرابٍ محنّط.

أنهى الحلاّق مكالمته الهاتفيّة، وابتسم ابتسامةً عبّر فيها عن أسفه بسبب إطالته في المكالمة، لكنّ ابتسامته هذه لم تكن كابتسامته الأولى تلك.

مايزال الزبون الآخر يحدّق في المجلّة، كان عمره في الثلاثين تقريباً، هكذا بدا لي، و لم يكن شعره طويلاً، ربّما هو الآخر كان حاله امتداداً لخطوط الطول والعرض التي نشاهدها عادةً على مجسّمات الكرة الأرضيّة التي تُوضَع في بعض الأمكنة الأنيقة بغرض الزينة.

راح صوت المقصّ يُطلق رغباته فوق رأس الزبون، فتتساقط أطراف شعره مترنحةً، وتهوي حيثُ الأسفل لتكونَ النهايةُ، وراحت المرآة تمتصّ وجوهنا لتُضيفها إلى العدد الهائل من الوجوه التي امتصتْها منذُ لحظة صُنعها، وهذه المرآة هي الوحيدة القادرة على مشاركة ذاكرتي في رصد تفاصيل لقائي الأوّل بمنار.

نطق الزبون ببعض الكلمات التي عبّر فيها عن رضاه، فابتسم الحلاق وراح يسرّح له شعره بعناية.

يشعر بعض الناس بشعور حزين حين يتساقط شعرهم من منبته وبشكل نهائي، والمسألة ليست متعلقة بتأثير هذا التساقط على شكل الوجه بقدر ما هي متعلقة بوجع داخلي منشأه يكمن في إحساسهم بالاختلاف عن الذين ما زالوا يتمتعون بشعر لم يتساقط، وبذات الوقت قد نجد شخصاً ما يعاني من ألم في معدته دون أن يشعر بالحزن، وذلك لأنه قادر على إخفاء هذا الألم عن الآخرين.

قام الزبون مِنْ على كرسي الحلاقة وألقى نظرته الأخيرة على وجهه في المرآة ثمّ خرج تاركاً وراءَه الحلاّق، وأنا والزبون الذي وضع المجلّة في مكانها وقام بتثاقل وجلس على كرسي الحلاقة استعداداً لرغبات المقصّ التي سيُلقِيها في الصالون الغارق في الصمت.

ودون أن أحدق جيداً دخل ثلاثة شباب إلى الصالون، ألقَوا التحية وجلسوا على الكراسي، دار حديثٌ بينهم وبين الذي على كرسي الحلاقة حول مخاوفهم من التأخّر، وكان الزبون يردّ عليهم بكلمات باردة من وجه ثابت أمام المرآة، وكأنّه مازال جامداً فوق تلك المجلّة التي كانتْ بين يدَيه، وطلبوا من الحلاّق أن يسرع قليلاً خشية التأخّر.

أدركتُ أنّ هؤلاء الشباب على موعدٍ مع هذا الزبون في هذا الصالون، وأنّهم أتَوا لأخذه معهم لمكانٍ ما.

راح الحلاّق يبذل مهارةً في الحلاقة استجابةً لطلبهم في الإسراع، بينما راح الشباب يتحدّثون فيما بينهم.

كانتْ كلماتهم تأتيني دون أن أنظر في وجوههم عبر المرآة الواسعة التي أمامنا، كنتُ مشغولاً بذات المجلّة التي رحتُ أقلّب صفحاتها كي أعثُر على الصفحة التي كانتْ بين يدَي الزبون، رميتُ المجلّة ورفعتُ رأسي صوب المرآة، وقعتْ عيناي في عيني أحدهم عبر المرآة، وبعد تأمّلٍ دام للحظاتٍ التفتَ إليّ وكأنّه لا يثق بالمرايا، قام ووقف أمامي بوجه يشبهُ وجه السائحِ، وهو يتأمّل واجهة فندقٍ كان قد أقام به لفترةٍ ما، بينما أنا تأملتُه كما يتأمّل المهاجر ساحة المدينة التي انطلق منها ذات يومٍ، لفَظَ اسمي ولفظتُ اسمه، وجلسنا نسترجع ذكرياتٍ جمعتْنا حين كنّا صِغاراً.

لقد عاد رشاد بعد كلّ تلك السنوات تاركاً العاصمة، ليستقرّ في هذه المدينة التي تركها آنذاك بسبب عمل أبيه في العاصمة، هاهو رشاد أمامي لا ينقصنا شيءٌ سوى شَاهدات المقبرة التي أمضينا طفولتنا بين ممرّاتها وأحجارها وترابها وموتاها.

استدار رشاد إلى صديقَيه اللذَين بجانبه قائلاً:

– هل تعرفون جابر؟

في هذه اللحظة تماماً لَمَعَ شيءٌ داخل رأسي وأنا أنظر في وجه الشاب الذي بجانب رشاد، شبهٌ خفيّ وواضحٌ معاً بين قسمات وجهه وقسمات وجه كنانة، فالعينان هما عينا كنانة بكامل خضرتهما واتساعهما وما يحيط بهما من نحت وحفر في الجمجمة وكساء من لحم رقيق ودم ينبض بالحيوية عبر منحدرات هذا الوجه.

ثم استدار رشاد نحوي وقال مستغرباً:

– وأنت يا جابر هل تعرف هذَين الشابَين؟

ثم أشار بوجهه نحو الشاب الذي على كرسي الحلاقة قائلاً:

– وهذا الشاب ألا تعرفه أيضاً؟

رفعتُ له حاجبيّ مع ابتسامةٍ خفيفة كاعتذارٍ منّي لعدم معرفتي لأصدقائه الثلاثة.

نظر رشاد إلينا باستغرابٍ واضحٍ ثم قال:

– أنتم أبناء مدينةٍ واحدةٍ ولا تعرفون بعضكم!!

قام رشاد بتقديمي لأصدقائه بنبرةٍ تشبه نبرة الذي يقرأ في كتاب:

– هذا هو جابر الزايم، صديق الطفولة، أمضينا أوقاتاً جميلةً بكلّ ما فيها، لم أرَه منذُ أن غادرتُ المدينة.

ثم قام رشاد بتقديم أسماء صديقيه اللذين دخلا معه بذات النبرة التي قدمني بها، وأشار بإصبعه نحو المرآة التي أمام صديقهم الجالس على كرسي الحلاقة، وقدمه لي وأضاف:

– الذي سنتأخر بسببه.

نظر الحلاّق إلى رشاد قائلاً:

– دقائق وسأنتهي، لا تقلقوا.

تذكرتُ وجه كنانة وشعرتُ برغبةٍ في الخروج من هذا الصالون لعدم احتمالي هذا الذي عصف بذاكرتي.

وبينما أنا شارد أيقظتْني كلمات منار التي وجّهها لي عبر المرآة:

– جابر، إنّك تدخّن بطريقةٍ تشبه التثاؤب.

ابتسمتُ له وأنا أنفث دخان سيجارتي، ولم أجد عبارةً تليق بأوّل جملةٍ قالها لي، وشعرتُ بأنّ ابتسامتي الخاطفة له هي الردّ الوحيد على جملته ووجوده.

راح رشاد يتحدّث بصوتٍ منخفضٍ عن ذكرياته في هذه المدينة، ثم تنهّد ورفع رأسه نحو الأعلى.

حرّك منار رأسه صوب رشاد قائلاً:

– كأنّ صديقك جابر لا يحبّ الحديث مع الآخرين؟

ودون أن يحرّك رشاد رأسه المُسنَد على الحائط نحو الأعلى ردّ قائلاً:

– عليكَ أن تسأله وسيجيبك.

سقط المشط من بين يدَي الحلاّق، ودون أن يلتقطه تناول مشطاً آخرَ.

سقوط المشط سرّح المسافة التي تفصلني عن منار، وسرّح السؤال وترددي في الإجابة عن السؤال الذي لم يوجّهه منار لي بشكلٍ مباشرٍ.

دار حديثٌ بسيطٌ بيني وبين الموجودين حول قسوة الزمن ومروره

على عجل، وأبدى رشاد استغرابه من العمر الذي صرنا فيه، وتمنى لو أن العمر يعود بنا لتلك الطفولة.

أنهى الحلاّق قصّ وتسريح شعر صديقهم واستعدّوا للخروج، وبكلّ لباقة طلب رشاد منّي أن أرافقهم بالخروج، اعتذرتُ عن ذلك بلباقةٍ، لكنّ اللباقة بدتْ أكثر وضوحاً حين ابتسم منار قائلاً:

– سنلتقي لاحقاً.

ورشاد قال لي على عجلٍ:

– سأنتظركَ غداً في مثل هذا الوقت أمام هذا الصالون كي نذهب إلى بيتنا الجديد.

خرج الجميع وجلستُ على كرسي الحلاقة وظلّتْ عينا منار تسيلان على وجه المرآة كأنهما عينا كنانة، وكأنّ مطرقة ما هَوَتْ على دماغي فحركتْ كل ما فيه من ذاكرة تلك الظهيرة التي جعلتْ لي من كنانة كلّ شيءٍ، وجعلتْ لي من كلّ شيءٍ كنانة.

قام الحلاّق بمسح المرآة بقطعة قماشٍ استطاعت أن تزيل تلك الزفرات، لكنّها لم تستطع أن تزيل أثر وجه منارٍ.

تجرّد صوت المقصّ فوق رأسي من رغباته المعتادة وتحوّل إلى عازف نايٍ وذلك كي يجعل من داخلي أرضاً خضراءَ ترعى عليها قطعانُ أغنامٍ راحتْ تثغو في ذاكرتي.

وأنا غارقٌ في الكرسي بسنواتي الخمس والعشرين أغمضتُ عينيّ بمساعدة تأثير المقصّ فوق رأسي، ورحتُ في وجه كنانة التي ظلّتْ لغزاً حاكتْه لنفسها بعنايةٍ لتتركني أمامه واقفاً كما يقف خبراء الطبّ أمام لغز الموت المتين.

مرّ الأسبوع الأوّل على تعرّفي على منار، وكان هذا الأسبوع كفيلاً بنثر طفولتي أمامي من جديد، طفولتي التي لم تكن إلا عذابات سقطتْ عليّ دفعة واحدة في تلك الظهيرة، وظلتْ تراودني بين الحين والآخر عبر وجوه الناس التي أراها أمامي، فهذا وجه يشبه وجه بديع الزاهر، وذاك وجه مختلف عن وجه بديع الزاهر، وهذا وجه يشبه وجه كنانة، وذاك وجه مختلف عن وجه كنانة، بديع الزاهر وكنانة وجهان لكفتي ميزان شديد الحساسية، تارة ترجح كفة وتارة ترجح الكفة الأخرى، كل هذا يحدث بومضة وأنا أسير وسط الوجوه التي تصادفني في الطرقات، لكن الذي لم يكن في الحسبان أن يكون وجه شاب يشبه وجه كنانة لهذا الحد من الشبه، ولو لم أكن أعلم حقيقة الأمر لقلتُ إن منار هو أبن كنانة، لكن كنانة لم تترك بعد موتها سوى مجموعة ألغاز لا يدرك حقيقتها إلّا ذاك الذي يدعى بديع الزاهر.

بعد مرور أسبوع على تعرفي على منار التقينا مصادفةً أنا ورشاد تحت شجرة هرمة، ارتسمتْ على وجوهنا بعض ظلال أوراق الشجرة، ولا أعرف ماذا يَحلّ بهذه الأوراق حين ينهض الليل بعصاه التي لا يظهر منها إلاّ رأسها المضيء في بطن السماء، لكنّي شعرتُ بأنّ جذع الشجرة غير معنيّ بأيّ شيءٍ خارج تلك الدوائر التي تسكن داخله.

حدثني رشاد عن العاصمة التي لم تمضِ على مغادرته لها سوى أيام قليلة، لم تستطع بعد أن تمحو له أثر السنوات التي أمضاها هناك، لكنه بذات الوقت تحدث مرة أخرى عن شغفه بهذه المدينة التي احتضنتْ طفولته، و لم أكن أود أن يسترسل كثيراً بحديثه عن تلك الطفولة التي أمضيناها معاً.

لم أسأل رشاد عن منار لكني كنتُ أتوقع قدومه في أيّة لحظة كما يتوقع اللصّ خروج يدٍ ما من بين كومة الأوراق النقدية في أثناء سرقتها.

شعرتُ بشيءٍ من الملل فأستأذنتُ رشاد بالانصراف، وما أن مشيتُ عشرات الأمتار حتى رأيتُ منار يسير نحو رشاد دون أن يراني، وتمنيتُ لو لم أغادر كي أشاهد منار عن كثب.

كان شعوري كالديانات السماوية في بدايات نزولها، وكقادة الحروب حين يطلّون برؤوسهم من الشرفات يتأمّلون الأفق في اتخاذ تدابيرَ ما.

خرجتُ مساءً وسرتُ دون هدف، كانتِ الشوارع مستويةً إلاّ أنّي كنتُ أشعر بتلك المنحدرات التي تجعلنا نشعر بسقوط الروح ورعشة الاستيقاظ من الحياة، مَنعَني هواءٌ خفيف من إشعال سيجارتي، التجأتُ خلف عامود معدنيّ طويلٍ ترقُد فوقه إنارة كما يرقُد البوم فوقَ عامودٍ أثري، أشعلتُ سيجارتي وسرتُ بأشيائي فوق أشيائي كما يسير النعشُ على أكتاف الذين سيَلحَقون به. عدتُ إلى البيت؛ وأنا أجهل الفصيلة التي أنتمي إليها، ورمقتُ أبواب الغرف الخالية من أفراد أهلي الذين تركوا المدينة وسكنوا القرية، وشعرتُ أنّ جدران البيت هي جدرانٌ وهميةٌ لم

تستطعْ أن تمنحني شعور الطمأنينة، وأن هذا الفراغ الممتدّ في مساحة البيت ماهو إلا ذات الفراغ الراسي في جوف المدينة.

الجيران الذين كانوا يطرقون باب البيت، والذين كانوا يتردّدون على بيتنا، ماعادوا فعلوا ذلك بعد أن غادر أهلي إلى القرية، وحتى الأقارب الذين في القرية ماكانوا يمرّون إلى بيتنا في أثناء نزولهم إلى المدينة، ربّما كان هذا بسبب توصية من أهلي كي أواظب على دراستي التي تدهورتْ دون أن يدروا.

انتصف الليل فجأةً وقمتُ إلى المطبخ لتحضير فنجان قهوة، وكان نباح الكلاب في الخارج يتشاجر مع الليل تارةً ومع ذاته تارةً أخرى، بينما كنتُ أنا أتشاجر مع ذاكرتي بخوفٍ رهيبٍ، ذاكرتي التي قام منار ببثّ الروح فيها ورفع شأنها من جديد.

فنجان قهوة يعطيني شعوراً ببعض الوجود، وذلك لأنّ البنّ والماء سيمتزجان بفعل يدَيّ اللتَين هما لي، كان كلّ شيءٍ في المطبخ يراقبني بصمتٍ، وكلّ شيءٍ ثابتٌ لا يتحرّك رغم وجوده، ونباح الكلاب توقّف في تلكَ اللحظات وشعرتُ أنّ لهذا الليل سطوةً ليس بمقدور نباح الكلاب أن يصمد أمامها، وأنّ تلك السطوة لن تتزحزح مِنْ بعد أن أفسحتْ سطوةُ النهار الدورَ لها إثر ترقبٍ وانتظارٍ.

عددٌ من النمل مشردٌ حول (البوتوغاز) الأبيض اللون، ودون أن أشعر رحتُ أراقب ذلك النمل عن كثب، فتساقطَ كلّ ما تبقّى من دهني فوق ذلك النمل، وكأنّي أهرب من ذاتي نحو ذلك النمل المُتجمِّع في

ذلك الوقت الخارج عن سطوة الليل بسريّةٍ واضحة، وشعرتُ أنّ ذلك (البوتوغاز) هو بمثابة مقهى لهذا النمل، فحبّات السكر الذائبة ببعض قطرات الماء قد تكون فناجين شاي أو قهوة في دهن ذلك النمل، نقرتُ بإصبعي على حافة (البوتوغاز) كي ينتشر النمل وبقيتُ جامداً أنتظره دون جدوى، نفختُ كلّ ما في داخلي من أفكارٍ غير منتظمة صوب ذلك النمل كي يتحرّك ويبتعد عن مكان موته، فلم أكن أريد لأيّةٍ نملة أن تموت حرقاً في لحظة دخول رأس الكبريت المُشتعل في أنفاس الغاز.

أعلنتْ سيجارتي نهايتها ببساطة شديدة و لم يكن لمشوارها أيّ معنىً، فلا أذكر أنّي نفثتُ من دخانها سوى النفثة الأولى، هكذا تحولتْ إلى رمادٍ؛ وأنا مشغول بإبعاد النمل.

أفزعني انقطاع التيار الكهربائيّ في تلك اللحظات، فأدركتُ أنّي لستُ من فصيلة النمل، ودون أن أحضّر فنجانَ قهوتي خرجتُ من المطبخ ككتلةٍ لحميةٍ دون عظام تتدحرج في الظلام.

المسافة التي تفصل المطبخ عن غرفتي مُظلمةٌ في الليل، ونباح الكلاب عاد من جديد، ويتقصّد القمر الاختباء وراء غيمةٍ كي يشعل الظلام ظلاماً، دفعتُ باب غرفتي فاصطدمتُ بظلام خرج دفعةً إثر دفعة، تسلّل بعض الضوء من جبين القمر وهو يسترقّ النظَر إليّ؛ وأنا واقفٌ على باب غرفتي أنظر نحو فراشي وغطائه ذي اللون الترابي الذي عليه بعض الرسومات الخضراء المصفرّة التي تشبه نبات الحرمل المُتناثر بين ممرّات القبور، تتضح الرؤية شيئاً فشيئاً، وكأنّ أحداً ما يقوم برفع الوسادة التي على فراشي

وإيقافها بشكلٍ طولاني، وكتابة اسمي عليها كما في شَاهِدات الموتى ليكتمل المشهدُ الجنائزي.

نظرتُ ورائي نحو القمر الذي مازال يراقبني بعيونٍ ثابتة، فتحتُ ذراعيّ ورُحتُ أقرِّبهما من بعضهما إلى أن استقرتَا علىً جانبَي القمر، ودون أن أصدر صوتاً قلتُ:

– لماذا كلّ هذا التناقض يا قمر!!؟؟

2

كل الأفعال تنتهي، ولا يبقى منها إلّا ما هو مرهون باللغة، واللغة هي التي تعيد تأجيج تلك الأفعال التي انتهتْ، وفي الكثير من الأحيان أشعر أن اللغة هي التي تمهد لفعل جديد في ظاهره، ولكن حقيقة الأمر هو فعل لا وجود له في الأصل، وبهذا الشكل يستمر العالَم في حركته البشرية.

مرّ أسبوعان على لقائي الأوّل بمنار، وكانت الأيام تمر بشكل فوضوي ومزدحم، لم أكن أرغب بشيء، وبذات الوقت كنتُ أرغب بالكثير، فهذه الحياة تجعلني قوياً على مواجهتها فيما يتعلق بشأن حب البقاء على قيدها، لكن هذا البقاء يمتص كل ما في داخلي من دوافع لتحقيق حقيقة ما أودّ منه.

جاءَني رشاد ليلاً وجلسنا نشرب القهوة ونتحدّث عن تلك الذكريات التي أمضيناها معاً دون أن نمرّ على حادثة الصندوق الخشبيّ حين ذهبنا معاً لقطف المشمش من شجرة بيت بديع الزاهر.

كنتُ أُمعن في عينَيه محاولاً معرفة إن كان يدرك الذي حدث لي آنذاك أم أنّه لا يدرك، وكان هو يُمعن في عينيّ محاولاً معرفة إن كنتُ أذكر ذلك أم أنّي نسيتُ الذي حدث لي بسببه، وشعرتُ أنّه كان يتوق لأن أصارحه بالذي جرى لي بعد أن لاذ هو بالفرار آنذاك.

وكدعابة من رشاد قال لي:

– ما رأيك بالذهاب إلى المقبرة غداً، أود أن نسترجع تلك الطفولة، وسنعود ووجوهنا مليئة بالتراب، مثلما كنا نفعل آنذاك.

وضحك رشاد ضحكة حسدته عليها، كانت ضحكةً مفعمةً بالقوة والحيوية، ولكن نهايتها كانت جافة وكأنها لم تكن، ابتسمت أنا بدوري كمحاولة مني للتخفيف من حدة الجفاف الذي أصاب نهاية ضحكته تلك.

ورغم مرور كل هذه السنوات مازال وجه رشاد يذكرني بتلك الظهيرة التي أريد أن أنساها، وفي حقيقة الأمر لم أكره رشاد بقدر ما كنتُ أستغرب وجوده في هذه الحياة، فوجوده يشعرني بأن هذه الحياة مليئة بأُناس لا شأن لهم سوى أن يكونوا شهود عيان على حياتنا، وهذا الأمر يجعلنا عراة أمامهم، ولا نملك القدرة على النسيان بسبب وجودهم من حولنا، وهذا

ليس ذنبهم، ولكن ذنبهم يكمن في هذا الكتمان، فمن الواجب في مثل هذا الأمر أن يكونوا عوناً لنا، وذلك عن طريق مواساتنا وتقديم كل ما له علاقة في خدمة تجاوز المحنة التي كانوا شهوداً عليها.

سألني رشاد إن كنتُ أرغب بالذهاب معه إلى منار أم لا، وبالرغم من أنّي كنتُ أرغب في ذلك لكني أجبتُه:

– ربّما ألحق بكَ إن تَسنّ لي ذلك.

قام رشاد وخرج من عندي، ووقفتُ أمام البيت أنظر إلى رشاد؛ وهو يمضي على عجل في الشارع الذي بمحاذاة المقبرة، ذلك الشارع الذي نظرتُ فيه وفي المقبرة أكثرَ ممّا نظرتُ في تفاصيل وجهي في المرآة، وفي كلّ مرة أمرّ من جانب هذه المقبرة المجاورة لبيتنا أزداد يقيناً بأنّ لشَاهدات الموتى قدرةً كبيرةً في ترك أثرٍ عميقٍ داخل المرء يختلف في كلّ مرةٍ عن الأخرى.

خرجتُ بعد خروج رشاد من عندي بساعتَين، وكعادتي سرتُ بمحاذاة المقبرة قاصداً مركز المدينة، رحتُ أمشي في الطرقات وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، كنتُ متعطّشاً في هذه اللحظات للكثير من هدأة هذا الليل المترامي بطريقة تجعل المرء يشعر أنه قد وقع في نهر ليس لمائه لون غير لون هذا الليل.

مررتُ بشارع مرتفع أتاح لي رؤية مصابيح البيوت من بعيد بطريقة تختلف عن رؤيتِنا لها حين نكون بالقرب منها، رحتُ أتأمّل هذه

المصابيح، كانتْ أشبهَ ما تكون بالخوخ المغسول بندى المساء، وكان الضوءُ المنبعثُ منها يشكل دوائرَ صغيرة، وداخل كل دائرة منها تشكلتْ رؤوس زوايا انطلقتْ من هذه المصابيح نحو أفقها المفتوح، وكان كل شيء أمام ناظري ثابتاً ما عدا هذه الأضواء التي كانت تميل وتتحرك كلما حركتُ رأسي قليلاً وأنا أنظر صوبها، وراودني إحساس بأن المرء لو بقي ينظر في المصابيح ويفكر بها مليِّاً سيتحول دماغه إلى مصابيح، وبهذا يصبح المرء شيئاً داخل شيءٍ، لا يُدرك ذاته وأبعادها، وبذات الوقت لا يدرك حقيقة الشيء الذي صار هو فيه، وكل ما يدركه هو إحساس بضيقٍ حادٍ داخل دوامة.

وأنا واقفٌ أدخّن سيجارتي مع هذه المصابيح راح بصري نحو جهة المقبرة ورحتُ أتذكّر تلك الأيّام التي أمضيتُها مع رشاد على ظهر المقبرة التي كانت تتوسّط الحيّ الذي لم أزلْ أعيش فيه، ومازال وجود المقبرة يُشعِرني أنّ حياتي قصيرةٌ لا تتجاوز المسافة التي تفصل بيتنا عن المقبرة.

كنّا نلمّ العيدان كي نُشعِل النار وسطَ المقبرة بعد الغروب بقليل، وكانتْ هذه النار بمثابة دعوةٍ لبقيّة أولاد الحيّ كي يأتوا، كنّا نعقد حلقةً دائريةً حول النار، وكانتْ الريح دائماً لا تسوق الدخان إلاّ نحوي، تحمرّ عيناي ويزداد سعالي وأبقى في مكاني جالساً على حجرٍ صغيرٍ قطعَ عشرات السنوات حتّى وصل إلى المكان الذي هو فيه، فحجارة المقبرة لا تستقرّ في مكانٍ، تبقى تنتقل من مكانٍ إلى آخرَ على أيدينا بين الحينِ والآخر، فالحجر الذي أجلس عليه اليوم قد ينتقل في الغد إلى مكانٍ مجاورٍ

على يد أحدٍ يكون قد احتاجه لغرضٍ ما، وتستمرّ رحلةُ الحجر إلى أن يستقرّ فوق قبرٍ جديدٍ.

كنّا نشكّل قبراً صغيراً ونحن نجلس حول النار وسطَ المقبرة التي تغطّ في نومٍ عميقٍ بعدَ نهارٍ طويلٍ أتعبَ ممرّاتِها بوقْع خُطانا وخُطا الزائرين.

في إحدى المرّات اقترب العجوز الذي كان يرعى أغنامه بجانب المقبرة وقال لنا:

– إنّ مَنْ يُشعِل النار في المقبرة سيُحرَق بذات النار داخل قبره.

لم نكنْ نعرف معنىً للقبر آنذاك سوى أنّه كومةٌ من التراب والحجارة تتوسّط حجرَين مستطيلَين عليهما كتابةٌ بطلاءٍ يمرّ فوقَ حروفٍ محفورةٍ على واجهتَي الحجرَين المستطيلَين.

كنتُ أستمتع كثيراً حين أمرّر إصبع السبّابة داخل تلك الحروف المحفورة على شاهدتَي القبر وأنا مُغمضُ العينَين، كنتُ أحاول أن أسيطر على إصبع السبّابة وأضبطه بدقّة كي لَا يخرج عن مسار حروف كلّ كلمة متّصلة ببعضها، و لم أكن أعير أيّة أهمية لنقاط تلك الحروف، وكنتُ أفعلُ ذلك على معظم شَاهدات الموتى ذاتِ الحَفْر الأنيق والواضح، ولكنّ قبراً واحداً كان يصعُب عليّ أكثر من غيره بسبب كثرة حروفه، وكان أهل ذلك القبر يُكثرون من الزيارات إليه، وقبل أن يذبل الورد الذي يضعونه عليه تكون باقةُ وردٍ جديدةٍ قد وُضِعتْ عليه من جديدٍ.

وأنا واقف أتذكر تلك المقبرة وأراقب مصابيح البيوت تحرّكتْ قدماي

بشكلٍ عفوي وسرتُ عدّة خطواتٍ وعيناي تغرَقان في ذرات ضوء المصابيح، شعرتُ بتيارٍ هوائيّ يَخفُقُ في داخلي من شدة الإحساس، وبينما أنا أسير بخطىً بطيئةٍ ومتشابهةٍ جاءَني صوتٌ يناديني:

– جابر.

توقّفتُ وحرّكتُ رأسي صوب مصدر الصوت، فإذا بشاب يقف على رصيف شارعٍ فرعيّ، لكنّ تردّده في النظر إليّ بشكلٍ ثابت جعلَني أعتقد أنّه لم ينادنِي، تقدّم نحوي بعد أن مرّتْ سيارةٌ ومسحتْ ملامح وجهي بضوئها المُستيقظ على الطرقات، وحين وصل إليّ ألقى التحيّة بوجهٍ مُبتسمٍ ومرّت لحظاتٌ؛ وأنا أحدّق في وجهه دون جدوى، ثمّ عاد وابتسم منْ جديدٍ قائلاً:

– هل عرفتَني أم أنّكَ نسيتَ؟

كان عليّ أن أضبط داخلي أوّلاً ومِن ثمّ أتفرّغ لِمَا قال، حاولتُ فعل ذلك وابتسمتُ له دون أن أشعره بحجم الذي أنا فيه، وكان لَبِقاً حين أسرعَ بتذكيري باسمه، رحبتُ به بابتسامةٍ، وعلى عجلٍ قال:

– تمّنينا لو أنّك رافقتَنا، كان بوسعكَ أن تؤجّل قصّ شعركَ في ذلك اليوم.

أدركتُ أنّه ذلك الشاب الذي دخل الصالون مع منار ورشاد في يوم لقائنا الأول، وفي تلك اللحظة تذكّرتُ صديقهم الذي كان مُنكبّاً على تلك المجلّة والذي رأيتُه مرّةً واحدةً وعلى عجل بعد لقائنا في الصالون.

وبينما أنا شاردٌ في تفاصيل ذلك اليوم الذي سقط في صالون الحلاقة؛ راح الشاب يشرح لي أسباب غيابه عن المدينة، وظلّ مسترسلاً بحديثه عن وَضْع أبيه الصحيّ إلى أن أنهاه بشيءٍ من عزاء الذات للذات قائلاً:

– الأطباء فعلوا كلّ ما بوسعهم، وأبي لم يعد شاباً.

بالرغم من شرودي إلاّ أنّ جملته الأخيرة كانت تدلّ على بعض الذي فاتني من حديثه، ومن حسن الحظ أنّ قسمات وجهي كانتْ تشير إلى تأثّري لوضْع أبيه الصحيّ، وكان لَبِقاً مرة أخرى حينَ أراد أن يخرِجني من تأثّري لوضع أبيه؛ وذلك بابتسامةٍ منه ثمّ أتبعها قائلاً:

– سيزوّجني أبي عمّا قريب، وسأدعوكَ وسنفرح كثيراً في حينها.

ابتسمتُ له كي أشعره بما يريد أن يشعرني به، ورغم أنّ الوقت كان متأخّراً من الليل إلاّ أنّه دعاني للذهاب معه إلى بيته، شكرتُه على دعوته، ولم أكن أكاد أكمل له اعتذاري وتقديم المبرّرات لعدم استجابتي لدعوته حتّى قاطعني مُلتمساً لي عذراً وحيداً؛ هو نيّتي في الذهاب إلى بيت منار حيثُ رشاد مازالَ يسهر معه، ولا أعرف كيف ظنّ أنّي ذاهبٌ إلى بيت منار، ووافقتُه على صِحة العذر الذي التمسه لي؛ وفي حقيقة الأمر لم أكن أنوي الذهاب إلى بيت منار في هذا الوقت المتأخر.

وبشيءٍ من الرجاء طلب منّي أن أجعل رشاد يتوقّف عن شرب النبيذ هذه الليلة، وعبّر عن استيائه من وضع رشاد قائلاً:

– لقد شرب الكثير ولم نعرف أنا ومنار سبب كلّ هذا الإفراط في الشرب.

وكان استياؤه على رشاد واضحاً حين قام بتوديعي على عجلٍ.

لم أكن أرغب في الذهاب إلى منار، ولكنّ ما دفعني للذهاب هو فضولي في رؤية رشاد ثملاً.

سرت نحو بيت منار وكان الليل لا يزال يحاصرني على مهلٍ، وحين وصلت بيت منار ضغطتُ على جرس الباب و لم أستطعْ أن أجدّ تركيبةً لوجهي، تركتُ الأمر مُعلّقاً.

فتح منار الباب لي ودخلتُ، كان رشاد مُمَدَّداً على جنبه رافعاً رجله اليمنى على طاولة خشبية صغيرة، عليها علبة سجائرَ فارغةٌ، ونصفا برتقالة مقشّرة، وزجاجتا نبيذٍ فارغتان، واحدةٌ واقفةٌ والأخرى مُمَدَّدة بجانبِ نصفَيِ البرتقالة.

كانت الغرفة مبعثّرةً بصحون الفاكهة والثياب الملقاة هنا وهناك، تأخّر رشاد بعض الشيء في ردّه على تحيتي له، وتجرّع ما تبقّى من كأسه دُفعةً واحدةً، ثمّ نظر إليّ بعينَين حمراوَين؛ وهو يرحّب بي، جلستُ على كرسي عند رأس رشاد المُمدَّد على الأرض، وبنظرةٍ سريعة لحركات منار – وهوَ يضع لي صحناً من الفاكهة – أدركتُ أنّه هو الآخرَ ثملٌ.

كانتْ غرفة منار تتيح للزائر حريّةً كاملةً، وذلك بسبب انعزالها عن أهله الذين يسكنون الطابق العلويّ، وكان للبيت مدخلان، و لم أعرف هذا إلاّ مؤخّراً.

لم يحدث أن سألتُ منار عن أسرته، لكنّه ذكر لي ذات مرّةٍ أنّ والده

يعمل مع عمّه في التجارة، وذكر لي أنّ والدة أمّه قد تركتْ لهم قطعة أرضٍ وبيتاً ومالاً بعد موتها.

وبينما راح رشاد ومنار يتابعان حديثاً عن شخص لا أعرفه – كانوا قد بدؤوه قبل مجيئي – رحتُ أتأمّل صورة جدّة منار التي تركتْ لهم ما وَرِثوه عنها، كانت الصورة موضوعةً بإطارٍ خشبيّ مُعلّقٍ على الجدار، ولقد لَفتَ انتباهي ميل الصورة بعض الشيء، وشعرتُ أنّ الظرف يسمح لي الآن بأن أصلح هذا الميل، قمتُ ووقفتُ على الكرسي وأصلحتُ الميل بيُسرٍ شديدٍ وعدتُ إلى مكاني، وبشكلٍ مُفاجئٍ توقّف كلّ من رشاد ومنار عن الحديث وراحا ينظران إلى الصورة تارةً وإلى وجهي تارةً أخرى، ثمّ انفجر رشاد ضاحكاً حين قال:

– لم تكن الصورة مائلةً، الآن بدأتُ أراها مائلةً.

شارك منارٌ رشاداً في الضحك الذي انتهى بسعالٍ حاد من منار.

لا أعرف حقيقة الضرب بالكفّ على ظهر الذي يسعل، ولكنّي قمتُ بذلك دون أن يتوقّف منار عن سعاله، ولا أعرف حقيقة شرب الماء في أثناء السعال، ولكنّي قمتُ بصبّ كأسِ ماء، كان بجانب علب حبوبِ دواءٍ من نوعٍ واحد، كان يدهشُني صوت الماء وهو ينسكب، ولكن حين أكونُ شديدَ العطشِ لا أعير أهميةً لصوته بقدْر ما أعير أهميةً لفعل الماء في داخلي، عدتُ وجلستُ في مكاني؛ وكأس الماء في يدي، مددتُ يدي وجعلتُ كأس الماء عند صدره بين فمه ويده، وتركتُ القرار له في تحديد أمر شرب كأس الماء، لم يتناوله من يدي، بل انحنى برأسه فوق كأس الماء

ليشرب من يدي، هبط صمتٌ على المكان بعد أن توقّف منار عن السعال، تحرّك رشاد قليلاً ورفع رجله اليسرى إلى جانب رجله اليمنى على تلك الطاولة وراح يدندن أغنيةً ذات لحنٍ حزين، وكان يتوقّف بين اللحظة والأخرى كي يتذكّر كلمةً ما من كلمات الأغنية التي كان يدندنها.

رحتُ أمعِن من جديدٍ في صورة جدّة منار، واستطعتُ أن ألمح طِيبةً في سُحنة وجهها المليء بالتجاعيد ، ومن فرط التحديق فيها شعرتُ بضرورة إعطائها ابتسامةً منّي ثمناً لذلك التحديق، وابتسمتُ دون أن يلحظ رشاد ومنار هذه الابتسامة.

غمستُ إصبعي داخل كأس الماء ورفعتُه مُحمَّلاً بقطرة ماء، مسحتُ بها رموش عينيّ، ثم أمعنتُ النظر في وجه منار؛ وهو مُغمِضٌ العينَين، وجهٌ حِنطيّ يفوح منه لونٌ يميل للبياض، جبينٌ مُنتفِخٌ يشبه نضوج ثمرة من ثِمار الصيف، وأنف بعظم منحوت باستقامة ودقّة، يكسوه جِلدٌ ممسوحٌ إلى الخدَّين بطريقة تشبه انحدار الماء في ساقيةٍ، وفمٌ يكاد أن ينفجر اللون الورديّ منه، ويستطيع المرء أن يعرف بيُسرٍ شديدٍ أنّ عينَي صاحب هذا الوجه النائم هما عينان خضراوَان.

لم يغب وجه كنانة عنّي هذا المساء، كان حاضراً كحضور الأسماء في الحروب، وكان حضورها دوماً يسيل في منحدرات ذاكرتي كما تسيل كلمة ما قد نسيناها لتقف على رأس لساننا بكلّ عنادٍ إلى أن تعلن نزولَها بالطريقة التي تشاء والوقت الذي تشاء.

وأنا واقفٌ أرتّب نفسي استعداداً للخروج طلب منار منّي أن أبقى

لأشرب القهوة، وعدتُه بشربها في وقتٍ آخرَ، وما أن استدرتُ نحو باب الغرفة للخروج توقّف رشاد عن دندنته قائلاً لي:

– جابر، دعني أراك غداً

قال ذلك دون أن ينظر إليّ، وتابع يدندن، فعرفتُ أنّه اكتفى بقوله هذا دون أن أجيبه.

وبينما كان منار يوصلني إلى باب البيت عاد وقال لي:

– كان عليكَ أن تبقى لشرب القهوة.

قدّمتُ له ذاتَ الاعتذار، وأضفتُ عليه: تأخّر الوقت، وكدتُ أن أخبره عن حجم الماء والبنّ الهائلَين الذَين ينتظراننا في الأيّام القادمة.

وعند باب البيت تبادلنا التحية ومضيتُ قاصداً بيتنا.

سرتُ على الرصيف الذي بمحاذاة المقبرة، ولم يكن عرضه يتجاوز المتر الواحد، وكان المشي على هذا الرصيف المُوصِل إلى بيتنا يشعرني بالموت والحياة بذات اللحظة، وذلك حين يميل نظري تارةً نحو البيوت التي تطلّ أبوابها على المقبرة ونحو المقبرة تارةً أخرى.

وكلّما مشيتُ على هذا الرصيف ليلاً؛ يزداد يقيني بأنّي مشيتُ عليه بعدد أيّام موتى المقبرة.

كان الصمت يمسح رأس الحيّ والشارع والمقبرة، وهذا النوع من الصمت يجعلني أشعر أنّ ثمة مَنْ يراقبني.

فتحتُ باب بيتي ودخلتُ تاركاً خلفي عشرات الشَاهدات التي مررتُ بجانبها، وكلّما فتحتُ باب البيت؛ أتذكر لحظة اغلاقي له أثناء خروجي، فتح و إغلاق، وإغلاق وفتح، أمر يشبه الشهيق والزفير، وفي أغلب الأحيان يكون هذا الأمر مخادعاً، فأثناء خروجنا نكون بحالة ما، وحين عودتنا نغلق الباب خلفنا بطريقة منافية لتلك الحالة التي كنا بها أثناء خروجنا.

دخلتُ المطبخ وقمتُ بتحضير وجبة طعام أخذتْ مني وقتاً طويلاً، لم أكن جائعاً بما فيه الكفاية ولكنّني فعلتُ ذلك كي أملأ الوقت المتبقّي من ذلك الليل بشيءٍ من الحركة، وضعتُ صحن الحساء الساخن على الطاولة ورحتُ أنظر فيه بقوة، بدتْ حباتُ العدس وكأنها قد تحولتْ إلى دم بلون الذهب، صار وجه الحساء يشبه خلايا الدماغ المُلْتف حول نفسه، وثمة بعض الحبات على وجه الحساء لم تزل تحتفظ بشيء من لونها، الصحن صار ساخناً من تأثير الحساء عليه، وكذلك الملعقة التي كانت في الحساء، لكن سخونة الملعقة كانتْ أقل من سخونة الصحن، رحتُ أحرك الحساء بالملعقة، وأنا أفعل هذا سقطتْ الملعقة في الحساء الساخن، هذا الأمر أعطى شكلاً جديداً لوجه الحساء، أمعنتُ النظر فيه من جديد، و لم أرغب بإحضار ملعقة أخرى، ودون أن آكل شيئاً قمتُ بغسل الصحون وبعض ثيابي، وذهبتُ إلى باب البيت لأتأكد من إغلاقي له رغم يقيني بأني قمتُ بإغلاقه جيداً، وهذه ليست المرة الأولى التي أفعل بها هذا، كنتُ أفعل هذا باستمرار، وهذا الأمر يجعلني أشعر بارتياح لحظة رؤيتي لحقيقة الأمر، ويشعرني هذا بأن يقيني كان في محله.

دخلتُ الحمّام لأستحمّ، كان جسدي يضمحلّ تحت الماء المُنسكب فوقي، وكان قلبي يخفق بقوة، وأغمضتُ عينيّ وكتمتُ نفَسي لأطَول وقتٍ مُمكِنٍ، زادني ذلك شعوراً بالحيوية التي سرت بداخلي.

مسحتُ المرآة المعلّقة على الحائط كي أرى وجهي المُبلّل بالماء، وتذكّرتُ أنّي حين كنتُ طفلاً؛ كنتُ أقوم بوضع شيءٍ ما تحت قدمي كي أصعد بوجهي نحو المرآة، وها أنا الآن أنحني قليلاً كي أنزِل وجهي نحو المرآة بعد أن كبُرتُ وازداد طولي.

بقيتُ أنظر في المرآة، وكان وجهي يبدو أمامي قطعةً واحدةً خاليةً من التفاصيل، و لم يكن بمقدوري أن أتخيّل وجهاً آخر لي غير ذلك الوجه.

دخلتُ غرفتي وتفاجأتُ بفراشة تطير هنا وهناك، افترشتُ ظهري وبسطت ذراعيّ ورحتُ أراقب تلك الفراشة، فشعرتُ بفرح جعلني أظنّ أنّي أخذتُ أوكسجين غيري وأنا مُستلقٍ أمُدّ بصري نحوها، كان الفجر الواقف وراء زجاج باب غرفتي يدعوها ويلوّح لها بوجهه الهادئ، وكأنّ الفجر ليس بوسعه أن يلفّ ذلك الوقت إلاّ بخروجها إليه.

اجتاحتْني إغفاءَةٌ قصيرةٌ لم تدُم طويلاً، فتحتُ عينيّ وقمتُ بفتح باب الغرفة، ومضتِ الفراشة في مسامات آخر نداءٍ من نداءَات الفجر لها.

3

استيقظتُ مُتاخِّراً على صوت جرس الباب، راوَدني شعورٌ بالبقاء في فراشي وعدم القيام لفتح الباب، لكنّ صوت الجرس المُتواصِل أيقظ القيام بداخلي، قمتُ؛ وأنا أستنشق وجه كنانة الذي زارني في حلمي، وكأن الحلم لم ينقطع حين فتحتُ الباب وكان وجه منار أمامي.

رحّبتُ به ودخلنا، جلس مضطرباً؛ وبداخله ما لا يعرف كيف يُلقيه، اضطرابه ذلك ذكَّرني بكنانة حين أخفتْ اضطرابها في تلك الظهيرة.

أحضرتُ كوباً من الماء وفنجانَين من القهوة، وتمنّيتُ أن أقدّم له كوباً من الحليب الذي اعتدتُ على شربه، لكنّي شعرتُ أنّ الأمر يحتاج إلى

قهوةٍ أكثرَ من أيّ شيءٍ آخرَ، تناولَ سيجارةً من سجائري وأشعلها كي يشعرني أنّه يحمل أمراً يفوق قدْرتي على سماعه وقدرته على النطق به.

وأنا أرشف قهوتي أطلقتُ كلّ مافي داخلي نحو عينَيه الخضراوَين المضطربتَين، وظنّ أنّي أنتظر منه أن ينطق بشيءٍ ما.

– رشاد مات، لقد مات رشاد...

قالها وأجهش بالبكاء واضعاً رأسه بين يدَيه، وقمتُ بوضع يدي على كتفه، ورحتُ أمسح على شعره بيدي الأُخرى، وأنا أفعل ذلك؛ تذكّرتُ طفولتي على المقبرة وكلّ أصوات البكاء التي كانتْ تخرج من حناجر الأحياء في أثناء دفن موتاهم داخل المقبرة، وتذكّرتْ تلك المرأة الهزيلة التي كانتْ تدخل المقبرة لتضع الورد على شَاهدة قبرٍ لم يكن مُتناسقاً، ويكاد أن يكون مربعاً تغطيه حجارةٌ ذات لونٍ يميل للأحمر، ولم أكن أجرؤ على الاقتراب من ذلك القبر لضخامة حجمه.

كانتْ تلك المرأة الهزيلة شديدة النزَق، وكانتْ تشتُم كلّ مَنْ يحاول أن يعبث بحجارة قبر زوجها، وكأنّها كانتْ تعرف تموضُع كلّ حجرٍ من الحجارة التي تعتلي تراب ذلك القبر، شاهَدتُها أكثر من مرّةٍ، وهي تمسح شَاهِدة القبر بطرف ثوبها وتبكي بحُرقةٍ.

رفع منار رأسه؛ وكان وجهه مبلّلاً بالدمع مثل زجاج النوافذ في فصول الشتاء، وحين أمعنتُ النظر في عينَيه الرطبتَين شعرتُ بأن للدمع قدرة على زيادة خُضرة تلك العينَين.

ظلّ منار ينتظر منّي أن أسأله عن كيفية موت رشاد وعن الوقت والمكان اللذَين مات فيهما، و لم أكن أرغب في كلّ تلك التساؤلات، وأستغرِبُ من الناس دهشتهم من سماع موت أحد ما، وكأنّ الموت أمرٌ جديدٌ علَينا، ويُشعِروننني أنّ عشراتِ السنوات التيً أمضَوها مع الذي مات لم تكن كافية.

إنّ الغرابة الحقيقية تكمن في الحياة وأسبابها، وليس في الموت ذاته، وإنّ الموت أمرٌ اعتياديٌ، وذلك لتعلّقه بهواجس الذي يموت، وما أن يموت المرء يكون ماحدث قد حدث، وتموت معه فكرة الموت بكاملها تاركاً لنا أسباب الحياة التي قد تُشغلنا نحن الأحياء مثلما أشغلني وجودي بعد موت كنانة التي منحتني الحَياة، ولا أعرف ما الثمن الذي دفعته مقابل هذا.

وأنا مؤمنٌ كلّ الإيمان أنّ المرء حين يبكي على ميّتٍ ما؛ يكون في حقيقة الأمر يبكي على البشريّة التي لم يكن الخلود منً شأنها، والقاتل حين يقتل ضحيته، إنّما يفعل ذلك كي تمنحه الضحيّة شعوراً طفيفاً بذلك الخلود الزائف، وقد يصل الأمر به إلى حدّ الإدمان على القتل لتجرُّع أكبرَ كمية مُمكنة من ذلك الشعور، وهذه الأسباب تجعلني أشعر أنّنا مُولَعون بالموتى، لَا لأنّنا أوفياء لهم، بل لأنّهم منحونا ذلك الشعور دون أن نكون مُتورّطين بموتهم، والورد الذي نضعه علىَ شَاهداتهم، والكلام الحسَن والمُنمّق عنهم خير دليلٍ على ذلك، وكم يؤلّم الورد يقين الموتى.

وأذكر منذ ست سنوات تقريباً تلك الكلمات التي قالها مدير مدرستنا

عن أحد أساتذتنا بعد موته بأيام، كانت كلمات المديرغاية بالوجع، لقد أبكتْ كل الموجودين، وفي حقيقة الأمر لم أبكِ في تلك اللحظة وذلك لأني كنتُ أحب هذا الأستاذ قبل موته، وموت أحد ما هو نهاية حبنا له، أو نهاية كرهنا له، وما تبقى من كلام عنه هو مجرد إحساس بالوجع من مصيرنا الذين سيكون مثله، أو فرح خَفي نابع من شعورنا أننا مازلنا على قيد الحياة.

مسح منار عينَيه وقال:

– لقد تعرض رشاد لتيار كهربائي في غرفته ومات، هذا ماسمعناه من أهله، وبقيتُ أنظر إليه؛ وكأنّي أطالبه بالمزيد، فتابع قائلاً:

– حدث ذلك صباح اليوم، بعد خروجه من عندي بساعاتٍ.

وراح منار يحدّثني عن ليلة الأمس، وكيف ظلاّ هو ورشاد حتّى الفجر، وكيف ضحكا عند الباب؛ حين قام بتوديعه قبل أن يمضي إلى حتفه الذي كان ينتظره في سِلكٍ كهربائيّ داخل غرفته، واكتفى منار بتلك الكلمات ثمّ لاذ بالصمت.

مرّ بعض الوقت؛ ونحن نتبادل خيوط نسيج الصمت المُطبِق إلى أن طلب منار منّي أن أقوم وأجهّز نفسي من أجل الخروج لحضور الدفن الذي سيتِمّ خلال الساعات القادمة.

قمتُ لتبديل ثيابي، وأنا أفعل ذلك تذكّرتُ دفن الموتى؛ حين كنّا صغاراً أنا ورشاد وبقيّة أولاد الحيّ، كنتُ أرمُق ذلك ونحن نتابع ألعابنا

بين ممرّات القبور، وكنتُ أرمُق ذلك النشاط والحيوية في وجوه الذين يقومون بحفر القبر رغم الشمس المُحرِقة، وكان المعدن في رأس تلك العصا الخشبيّة يلمع تحت الشمس بوضوح في أثناء حفر ذلك القبر، وكأنّ أدوات الحفر كانتْ تعمل من تلقاء ذاتها، وكانتْ خطوات دفن الميّت تسير دوماً كصورة واحدة لجميع الموتى، فذات النشاط والحيوية، وذات الحفر، وذات الحجارة التي تُوضَع فوق كومة التراب التي كنتُ أظنّها بطن الميّت المُنتفِخ.

شعرتُ برغبة في رؤية المزيد من دمع منار، لكنّ رغبتي تلك لم تكن كفيلةً في سدّ الثقوب المُوزَّعة على جدراني، سألتُه إن كان يرغب في غسل وجهه، ودون أن يتفوّه بحرف تنهدَّ وقام ليغسل وجهه، عاد ومدَّ يده على المنشفة القُطنيّة ذات اللون الأبيض المُؤطَّرة بلونٍ زهريّ، وأنا أضع مفتاح البيت وعلبة السجائر وعلبة الثقاب في جيوبي غاب وجه منار في المنشفة، كانتْ طريقة مسح وجهه شديدة الهدوء، وكأنه كان يمسح وجهه بهذه الطريقة وقاراً لموت رشاد.

خرجنا من البيت كي نذهب إلى بيت رشاد، اقترب منّا رجلٌ وألقى التحية علينا بوجه احتَرَف القدرة على التعبير، لكنّ نبرة صوته لم تكن بمستوى قدرة وجهه. عبّر الرجل عن حزنه لِمَا حصل لرشاد، وتحدّث عن ضرورة الحيطة والحذر من الأسلاك الكهربائيّة، وأكدّ أنّه دائماً يوصي أولاده بعدم العبث بالأدوات الكهربائيّة، وسرَد لنا حكاية شاب مات بذات الطريقة التي مات بها رشاد، وبشكلٍ مفاجئٍ راح الرجل يسأل

منار عن صحة والده، فعرفتُ أنّ ذلك الرجل هو صديقٌ لوالد منار.

نظر الرجل في وجهي؛ وكأنّه يريد أن يعرف اسمي، ولم ينتبه منار لذلك، فابتسم الرجل قائلاً:

– أنا أبوسليم، صديقٌ قديمٌ لأبي منار، أعمل نجّاراً، في تلك اللحظة رفع منار يده نحو صدري، وهو ينظر في وجه أبي سليم قائلاً:

– وهذا صديقي جابرالزايم، عرّفني عليه رشاد.

وحين مرّ اسم رشاد على لسان منار؛ تنهدّ الرجل وعاد لحادثة ذلك الشاب الذي مات بالتيار الكهربائيّ، وراح يعيد ذات الحكاية بشكلٍ أكثرَ دقّة، بينما راحت عيناي صوب المقبرة المُمتدَّة على طول الطريق، وتساءَلتُ في نفسي عن المكان الذي ينتظر جسد رشاد الذي لسعته ثعابين التيار الكهربائيّ، وتساءَلتُ إن كان بمقدور رشاد أن يتذكّر ظَهر المقبرة بشَاهداتها التي لعب حولها، وجال بين ممرّات قبورها، أم أنّه سيكون مشغولا بباطن المقبرة وما فيها من موتى!!؟؟ ولا أعرف إن كان دفْن ميّت جديد يُضفي شيئاً جديداً من الألفة للموتى القدماء، أم أنّه يزيدهم نفوراً إلى أن يعتادوا على ذلك الميّت القادم المُحتفظ بشيءٍ من رائحة الأحياء!!؟؟

أنهى أبوسليم حديثه بكلمات مُتقطِّعة دلّتْ على الحالة تلك التي مات بها ذلك الشاب بالتيار الكهربائيّ، وكنّا أنا ومنار ننتظر منه أن يمضي في طريقه كي نمضي نحن بدورنا نحو بيت رشاد المُحاط بالجموع من الناس ذوي الوجوه المُتشابِهة في مثل هكذا موقفٍ.

طلب أبوسليم أن نذهب معه إلى بيته كي يخبر ابنه سليم بموت رشاد ليرافقنا هو الآخر إلى بيت رشاد لحضور الدفن الذي سيتم بعد ساعات، وفي تلك اللحظات شاهدتُ ثلاثة رجال بدؤوا بحفر قبرٍ بالقرب من الرصيف المُمتدِّ بمحاذاة المقبرة، وأنا أُمعن النظر في موقع الحفر؛ طلبتُ من منار أن يذهب هو مع أبي سليم، بينما أنا سأذهب بدوري لأُخبر صديقاً قديماً بموت رشاد كي يحضر الدفن معنا.

مضى أبوسليم ومنار بعد أن اتفقنا على أنّنا سنلتقي في بيت رشاد، وفي حقيقة الأمر لم يكن هناك صديقٌ قديمٌ كما ادّعيتُ، ولكنّي فعلتُ ذلك كي أتحرّر من الضيق الذي شعرتُ به حين رأيتُ المكان الذي قام الرجال الثلاثة بحفره، فلم أكن أرغب في أن يكون قبر رشاد على مقرُبةٍ من الرصيف الذي صار من الواجب وضْع سورٍ جداريّ يفصل المارّة عن رؤية شَاهِدات الموتى.

سرتُ في عمق المدينة، ثمّ اتخذت شارعاً طويلاً يتسع لخُطاي العطشى للسير حتّى النهاية، خُلو الشارع أشعرني أنّ سكّانه هم أيضاً علموا بموت رشاد.

ولا أعرف كيف راودتْني فكرة أنّ القبر الذي كان الرجال الثلاثة يقومون بحفْره قد يكون لميّتٍ آخرَ مات في ذات الوقت الذي مات فيه رشاد.

كان عليّ أن أُمضِي وقتاً دون أن أعود إلى البيت أو أن أذهب إلى بيت

رشاد كما اتفقتُ مع منار وذلك الرجل الذي ذهب لُيخبِر ابنه سليم بموت رشاد.

أنهتْ خُطواتي دَهس غبار الشارع الطويل ذاك، وسرتُ بشارع آخرَ، شاهَدتُ فيه طفلاً يجلس على الرصيف؛ وهو ينظر في ساعة يده، لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، اقتربتُ منه وسألتُه عن الوقت، ودون أن ينظر في ساعته قال:

– ساعتي مُعطّلة، ولكنّي أحبّ أن أضعها في معصمي.

كان هادئاً ولطيفاً وخجولاً بعض الشيء، ابتسمتُ له وتابعت سيري، في نهاية ذلك الشارع، هناك شارعٌ فرعيّ يسكُن فيه أستاذ رياضيات في الخامسة والثلاثين من عمره، اسمه رضوان اليوسف، تعرّفنا على بعضنا في قاعة لعبة الشطرنج في أثناء تواجدي في النادي الرياضيّ؛ حين كنتُ ألعب كرة القدم، ولم أكن بارعاً في لعبة الشطرنج، لعبتُ الشطرنج حينها مع رضوان اليوسف وغلبَني عدّة مرات، وأذكر أنّنا حين خرجنا من النادي؛ راح يحدّثني عن بداياته في الشطرنج، وكان يتوقّف بشكل مُفاجِئ في أثناء المشي، وذلك عند كلّ كلمة تُخفي وراءها جملةٌ فيها شيءٌ من الدهشة، وكان يشير بأصابعه حين يصِف لي تحركات حجر الشطرنج في أثناء حديثه؛ ونحن نسير، لاحظتُ حينها أنّه كان مُستمتعاً بإصغائي له، وأذكر أنّي كنتُ أودّ أن أفارقه عند نهاية الشارع المُمتَدّ أمام النادي، لكنّ حديثه المتواصل والسنوات العشر التي يكبُرني بها جعلتْني أخجل من قطْع حديثه، وبقيتُ أمشي معه حتى بيته، طلب منّي الدخول لكنّي

اعتذرتُ بحجّة أنّ أهلي جاؤوا من القرية لزيارتي وعليّ أن أذهب كي أُمضي معهم بعض الوقت قبل أن يعودوا إلى القرية من جديدٍ، سمح لي بالذهاب بعد أن وعدتُه بزيارةٍ في وقتٍ آخرَ.

لم أكن أتصوّر أن موت رشاد وما تبعه من ظروف هذا اليوم هو مَن سيقودني إلى السير في هذه الشوارع وإلى بيت رضوان اليوسف الذي وعدته بزيارة مضى الكثير من الوقت عليها.

قرعت جرس البيت ففتح رضوان الباب لي ورحّب بي بحرارة، كان صوت أطفاله الثلاثة يملأ البيت صخباً، ورائحة الطعام قادمةٌ من المطبخ، وصوت زوجته يطالب الاطفال بأن يسكتوا قليلاً، ولم يكن الأطفال يكترثون لصوت أمّهم القادم من المطبخ، استطاع أبوهم أن يجعلهم يصمتون حين نثر حجارة الشطرنج بينهم، وراح الأطفال يلهون بحجارة الشطرنج بهدوءٍ واضحٍ، وكانتْ أوراق الصحف مُوزَّعةً هنا وهناك.

وما أن جلستُ حتى طلب مني أن أنتظره قليلاً ريثما يذهب لشراء بُن وملح، قال إن زوجته طلبتْ منه أن يقوم بشرائهما قبل قدومي بقليل، خرج على عجلٍ، وأنا جالس في مكاني بقيتُ أحدق في الأثاث وبعض الأشياء ريثما يعود.

لا فرق بين المكوث في مكانٍ ما ونحن ننتظر وبين السجن سوى اختلاف الأسباب التي قادتنا نحو هذا المكان أو ذاك السجن، وجميل أن رضوان أحاطني علماً بأنه ذهب لشراء البُن والملح وذلك كي أدرك ماهية هذا الانتظار، فمن الصعب على المرء أن ينتظر أمراً ما دون معرفة زمن

وشكل هذا الانتظار حتى وإن كان قصيراً في زمنه وشكله، فأنا أذكر ذات مرة حين ذهبنا أنا ورشاد إلى بيت صديق لنا، كان بيته قريباً من المقبرة، و لم يكن يشاركنا هذا الصديق اللعب على ظهر المقبرة، ذهبنا لنلعب معه كرة السلة، وهي عبارة عن حلقة معدنية كانت مثبتة على جدار في بهو بيته، وكان ارتفاعها مناسباً لعمرنا وطولنا آنذاك، كنا نقف وراء بعضنا وكل واحد منا يرمي الكرة من مسافة لا بأس بها، وبينما نحن نلعب خرج والد صديقنا هذا من غرفته وقال لنا سأخرج قليلاً وحين أعود لا أريد أن أجدكم هنا، قام رشاد في حينها بتقديم الشكر لوالد صديقنا وكذلك فعل صديقنا، وتابعنا اللعب، ولكن الأمر بقي بالنسبة لي شيء يشبه السجن، فلم أكن أعرف متى سيعود والد صديقنا، وعندما كان يجيء دوري برمي الكرة نحو الحلقة لم أكن أدخلها، وبهذا الشكل تراجعت نقاطي عمّا كانت عليه قبل أن يرمي والد صديقنا ذاك الحكم الذي لم يكن واضح المعالم، وحين تساوت نقاطي مع رشاد وصديقنا طلبتُ منهم أن نحدد نقطة فاصلة مَن يصل إليها هو الفائز، لكنهما لم يكترثا لهذا وتابعا اللعب وقررا أن نبقى نلعب إلى لحظة دخول والد صديقنا، زاد توتري بهذا، وحين يجيء دوري برمي الكرة لم أكن أركز بالحلقة والكرة والرمية بقدر ما كنتُ أركز بلحظة دخول والد صديقنا، ولهذا كانت رمياتي بعيدة عن الحلقة، خرجت من بيت صديقنا هذا وتركتُ رشاد وصديقنا يتابعان رمياتهم التي كانت نقاطها مرهونة بلحظة دخول والد صديقنا.

دخل رضوان وهو يحمل القهوة، وراح يحدّثني عن انشغاله في إعداد دراسةٍ حول علاقة الشطرنج بالرياضيات، وظلّ يشرح لي ذلك؛ وهو

يمسك قلماً يخطّ به على ورقة بيضاء بعض الأرقام والأشكال الهندسيّة ورموز أحجار الشطرنج.

و لم يكن ينظر نحو عينيّ في أثناء حديثه معي، بل كان ينظر نحو نقطة ثابتة تقع بالقرب منّي، وذلك كان مُرِيحاً لي، فلم أكن أريد أن ينظر في وجهي كي لا يكتشف جهلي للذي يتحدّث عنه، وهززتُ رأسي له بعد أن توقّف عن الحديث قليلاً وهو يحدّق في الجدار الذي خلفي، فزاده ذلك شعوراً بالرضا.

دخلتْ زوجته وألقتْ التحية وطلبت منّا أن نقوم إلى مائدة الطعام، ثمّ قام بحمل الأطفال الذين ناموا على الأرض إلى أَسرّتهم، ونحن نأكل؛ تبادلنا حديثاً خفيفاً عن بعض أنواع الأطعمة، وعبّرتُ عن إعجابي بطعام زوجته، وكان بودّي أن أسأل عن اسم أحد الأطباق الموضوعة أمامي لشدة مذاقه الطيّب وعن طريقة تحضيره ولكنّي لم أفعل.

وبعد أن تناولنا الطعام جلسنا نشرب الشاي ونحن نلعب الشطرنج، كان الصمت يحرسنا ويحرس الأطفال النائمين، وكنّا أنا ورضوان كالموتى أمام نبض الحياة الذي دبّ في أجساد حجارة رقعة شطرنج.

وما أن أخذتْ اللعبة مجرياتها راح رضوان يُبدي إعجابه بأهمية الحصان تارةً وأهمية الفيل تارة أخرى، وحين كان يفعل ذلك؛ يجعلني أرتبك وأركّز تفكيري في الحجر الذي يقوم بذكر أهميته دون بقية الحجارة.

انتهتِ اللعبة، فأشعلتُ سيجارةً، وعاد يحدّق في الجدار من جديدٍ،

و لم أكن أعرف بماذا كان يفكّر، ودون أن يحرّك عينَيه همَس:

– علاقة الشطرنج بالرياضيات، آه من علاقة...!!؟؟

في تلك اللحظة رحتُ أفكّر بعلاقة الشطرنج بالموت المُزيَّف، وشعرتُ أنّ الإنسان وحدَه معنيٌّ بالموت، وكلّ ماتبقّى هي أشياء لم تُخلَق خَلْقاً حقيقياً، وبهذا هي لا تعرف معنىً للموت.

وتساءَلتُ إن كان بوسع الإنسان أن ينحدر لمستوى تلك الأشياء كي يتخلّص هو أيضاً من شعوره بالحياة.

فجأةً استدار رضوان إليّ وأشار بإصبعه إلى رقعة الشطرنج فوق أحد المربعات قائلاً:

– على هذا المُربَّع تماماً تغيّر مجرى سير اللعبة.

هززتُ له رأسي ونظر في وجهي نظرةً أمرتْني بأن أفكّر، ثم أمسك بالقلعة ووضعها على ذات المُربَّع الذي أشار عليه، وراح يبيّن لي حجم الخطأ الذي ارتكبتُه على ذلك المُربَّع.

شعرتُ بشيءٍ من الغثيان، وبأن هناك لغةً لم يُعثَر عليها بعدُ، لغةً ليستْ وظيفتها التعبير، بل وظيفتها صناعة التعبير، وبذلك يستطيع الإنسان أن يتحرّك ضمن تعبيرٍ جديدٍ مُتفّقٍ عليه من الجميع غير قابلٍ للتأويل والتفسير والتشويه والتزييف.

تحديق رضوان في الجدار جعلني أنتظر قليلاً كي أستأذنه بالانصراف، وما أن نظر إليّ حتّى طلبتُ منه أن يأذن لي بذلك، وبكلّ هدوءٍ قام

ليوصلني إلى باب البيت، وحين ودّعني على الباب عبّر عن سروره بزيارتي له وأضاف قائلاً:

– أنا آسف لأني فُزتُ عليكَ.

وبذات الهدوء قلتُ له:

– وأنا آسف لأني خسرتُ أمامكَ.

قلتُ له ذلك؛ وأنا أشعر أنّ المرء حين يخسر يحظى بنصيبٍ كبيرٍ من السكينة والطمأنينة ليس بوسع الفائز أن يحظى بها.

خرجتُ من عند أستاذ الرياضيات رضوان اليوسف قاصداً البيت دون الذهاب إالى بيت رشاد، سرتُ في ذات الشارع الذي جئتُ منه وشعرتُ أنّ الشارع بدا لي أكثرَ طولاً، وحين وصلتُ إلى بداية الشارع المُوصل إلى بيتنا شاهدتُ الكثير من الناس يتجمّع هناك عند المقبرة، فأدركتُ أنّهم يستعدّون لدفن رشاد، وصلتْ جموع الناس وتوقّفتُ بينهم، ورحتُ أنظر إلى وجوه الناس، وشاهدتُ الشابَين الذَين التقيتُ بهما مع منار ورشاد في ذلك الصالون، فشاهدتُ الكثير الكثير من الوجوه التي أعرفها والتي لا أعرفها، وأنا أجول بنظري؛ رأيتُ منار وأبا سليم الذَين تركتُهما معاً، شَاهدَني منار؛ وأنا أنظر إليه، لكنّه لم يكترث لذلك، رجعتُ إلى الوراء قليلاً ومشيتُ عدّة خطوات نحو مكانٍ مُرتفع من المقبرة يتيح لي رؤية الجميع، كان الهدوء جميلاً للغاية، والوجوه ثَابتةٌ وخاليةٌ من أيّ تعبيرٍ، والعيون لا تشير بشيء وإن وقعتْ على بعضها، وخطوات الدفن

تسير بسلام لا مثيلَ له، وفارق السنّ بين كلّ الموجودين لا أثرَ له، وكأنّ جميع الموجودين هم أبناء عُمرٍ واحد، كان بجانبي رجلٌ طاعنٌ في السنّ يحاول أن يكتُم سعاله بمنديلٍ من قماشٍ نظيفٍ ومُعطّرٍ ومَطويٍّ بدقّة، وكأنّه أمضى ساعةً من الوقت وهو يرتّب ذلك المنديل قبل مجيئه إلى هذا الدفن، وأنا أمعن النظر من جديد في تفاصيل وجوه تلك الجموع وقعتْ عيناي على الرجل الذي يُدعَى: (سارق دهن العقول)، ضاق صدري، وتحرّر شعوري رغماً عن إرادتي، وتصبّب جبيني عرَقاً، و لم أعد أعرف الشعور الذي أنا فيه، كان واقفاً بالقرب من التابوت، وكأنّه يقف بجانب ذلك الصندوق الخشبيّ الذي عذّبني فيه منذُ عشر سنوات، أمعنتُ النظر فيه أكثرَ فاكثرَ، إنّه هو ذاته، (سارق دهن العقول)، مازال يحتفظ بوجهه وجسده كاملَين كما هما، سارق دهن العقول بعد كلّ تلك السنوات يعود بين عينيّ اللتَين مازالتا ترتجفان خوفاً من الموت الذي زرعه فيهما.

كأن الخوف من مشتقّات الغيب، فالصورة التي أمامي كنتُ على دراية بأنّها ستظهر لي يوماً من الأيّام، يتوسّطها هذا الرجل بكامل وجهه وصوته، وكلّ الشَاهدات التي حولي ليس بإمكانها أن تبعث في روحي الطمأنينة، سوى شَاهدتَين يتوسّطهما قبر هذا الرجل الذي لم يمت في تلك الظهيرة التي بكيتُ فيها من أعماقي كي يموت بلحظةٍ واحدةٍ، ومازلتُ أذكر حُرقتي؛ وأنا أئن في صدري:

– يجب أن يموت حالاً.

ولا أعرف ما الذي يمنع حدوث الموت في لحظةٍ نكون فيها بحاجةٍ

لأن يموت شخصٌ ما!؟ في حين أنّه يحدث لأشخاص آخرين ببساطةٍ شديدةٍ ودون انتباه.

حرّك رأسه فجأةً نحوي وأغمضتُ عينيّ وأنزلتُ وجهي نحو قدميّ، لم أجرؤ على فعل أيّ شيءٍ في تلك اللحظات سوى الوقوف وراء رجُلَين؛ ورحتُ أختلسُ النظر إليه من بينهما، إنّه هو بشحمه ولحمه، بجنونه وقسوته وغرابته.

كان الصمت مايزال يلفّ شَاهدات الموتى بذراعَيه، لكنّ ذلك الصمت تحرّر حين سمعنا ضربات يدٍ تضرب على خشب التابوت، نظرتُ كما نظر الجميع إلى مصدر الصوت الّذي أحدثه (سارق دهن العقول)؛ وهو يضرب باطن يده بوجه التابوت المَرميّ جانباً، ثمّ وضَع رأسه على التابوت؛ وهو يبكي بحُرقةٍ دون صوت.

سمعتُ الرجل الذي بجانبي يقول لرجل بجانبه:

– إنّه السيّد بديع الزاهر، أحد أقرباء أبي رشاد، يا للمسكين!!

لم يكن أحدٌ من تلك الجموع يدرك أنّ لبديع الزاهر لقباً أكثرَ دقّةً من اسمه هذا، وحدي أنا من بين أولئك الناس مَنْ يعرف أنّ لقبه (سارق دهن العقول)، وزوجته كنانة تعلم هذا اللقب أكثر دقةً منّي.

وفي حقيقة الأمر لم أكن أعلم أن بديع الزاهر هو من أقرباء رشاد، وكلّ الذي أعلمه هو أنّ مجموعةً من الناس يسكنون في داخل ذلك الرجل ولا يحتاج هو إلى أن يكون له أقرباء، لأنّه (سارق دهن العقول) وأكثر.

عاد بديع الزاهر يضرب باطن يده على وجه التابوت بحدّة أقوى؛ وهو يهزّ رأسه بين كتفَيه يمنةً ويسرةً، قام أحد الذين بجانبه بوضع يدَيه على كتفَيه محاولاً التخفيف عنه وتهدئته.

كانتْ ضرباته على خشب التابوت هي ذات الضربات على ذلك الصندوق، وكان بكاؤه هذا هو ذات ذلك البكاء، وكانتْ الرؤية تشبه ذلك الألم الذي أذاقني إيّاه هذا الرجل.

وخرجتُ من تلك الجموع بحذرٍ وهدوءٍ قبل أن ينظر بديع الزاهر في وجهي ويقول:

– أنا سارق دهن العقول، سأمسكُ بك من جديد.

دخلتُ غرفتي وأسندتُ ظهري على بابها المُغلَق، شعرتُ بشيءٍ غريب يلامس صدري تارةً وكتفي تارةً أخرى، أدخلتُ يدي تحت قميصي دون جدوى، ثمّ قمتُ بخلع قميصي على مهلٍ، تنفسّتُ نفساً نقياً حين اكتشفتُ أنّ الذي كان داخل قميصي هو تلكً الفراشة، أمعنتُ النظر فيها كما يُمعِن الضرير في صوت ارتطام حبّات المطر بأوراق الأشجار.

انتابني شعورٌ بأنّ تلك الفراشة هي ذات الفراشة التي كنتُ قد أطلقتُها نحو ذلك الفجر، تمدّدتُ على ظهري بجانب قميصي، ووضعتُ كُمّ القميص على صدري ونمتُ، ونامتْ معي كلّ وجوه الذين كانوا في المقبرة.

4

ظلّ وجه بديع الزاهر يُراودني، وكنتُ على دراية أنّه ليس قادراً على تذكّر وجهي إن استطعتُ أن أحافظ على قسمَات وجهي وضبط إيقاع عينيّ، إذا ما صادفني في أحد شوارع هذه المدينة التي عاد إليها بعد كلّ هذا الغياب.

إنّ وجود هذا الرجل يُشعرني بتقزّز ليس بوسعي احتماله، والتفكير فيه وصل حدّ الإدمان، وكانتْ أفكاري تأكل بعضها، فكلّما وصلتُ إلى قناعة تظهر لي قناعةٌ أخرى تأكل التي سبقتْها، ويبقى هو ثابتاً أمام هشاشة فراغي.

لقد زرع في داخلي نباتاتِ الخوف وقد عاد بعد كل هذه السنوات ليقضُم جذور زرعه على مهلٍ، وعلّمني كيف يشهد المرء موته دون أن يَسبِق له معرفة معنى الموت، وعلّمني أنّ الأمنياتِ ليس من شأنها أن تُدرِك أبواب الموت لتطرُقها راجيةً موت أحدٍ ما.

وأنا جالسٌ أفكّر بالذهاب إلى بيت منار؛ سمعتُ طرقات الباب، قمتُ وفتحتُ الباب، إنّه شابٌ من أقربائي الذين في القرية، رحّبتُ به وطلبتُ منه الدخول، ولكنّه اعتذر وقال إنّ أهلي يودّون رؤيتي، وحين لَمَحَ شيئا من الاضطراب في وجهي أكّد لي أنّ أهلي بخيرٍ، وكلّ ما في الأمر أنّهم يودّون أن أتناول الطعام معهم والاطمئنان عليّ.

عدتُ وطلبتُ منه الدخول، لكنّه اعتذر من جديدٍ بسبب ضيق وقته، شكرتُه على مروره هذا ومضى على عجلٍ.

بعد مرور ساعةٍ من الوقت خرجتُ وأوقفتُ سيارة أجرةٍ لرجلٍ في الخامسة والأربعين، وانطلقتْ السيارة بنا نحو القرية.

كان الدرب يمضي تحت عجلات السيارة كما يمضي الخيال في لحظات الفرح، وبعض التلال بدتْ في عينيّ أزهاراً تودّ ملاطفة وجه السماء، وكانتْ جميع الأشياء تصيرّ خلفنا بطريقة تترك في النفس شيئاً من لذة النسيان، وكلما كانت السيارة تهبط وتصعد يزداد شعوري بأن هذا الهبوط والصعود ما هما إلا رياضة للقلب لابد منها بين الحين والآخر كي تمنحه مرونة الخفقان وذلك لتفادي بعض الصدمات المفاجئة التي يتعرض لها.

وأنا في السيارة؛ شعرتُ بالاطمئنان بسبب قدرة السيارة على منح المرء شعوراً بالهروب نحو الأمام بسرعة ليس بوسع أقدامنا على مجاراتها، وشعوراً بحيوية اللحظة التي لها قدرةٌ على نسف اللحظة التي قبلها بسرعة تفوق سرعة اللحظات التي اعتدنا عليها داخل زجاج الساعات التي بأيدينا وعلى الجدران.

وبنبرةٍ فيها بعض التشويق تحدّث صاحب السيارة عن حادث سيرٍ كاد أن يوديَ بحياته، وأكّد لي بالدقّة أنّ الخطأ لم يكن منه، بل كان بسبب شرود السائق الآخر.

ولفتَ انتباهي كثرة شربه للماء على جرعاتٍ من المطرة التي قال إنّها تذكارٌ من أبيه الذي مات منذُ سنتَين وأربعة شهورٍ، نظر من نافذة السيارة التي بجانبه ثمّ تنهدّ وأخذ جرعة ماءٍ من المطرة ولاذ بالصمت خلف مقود السيارة.

لقد لاذ بالصمت دون أن يخبرني ماذا حلّ بالسائق الآخر الذي كان طرَفاً بالحادث.

انحدرنا نحو دربٍ ترابيّ يودي إلى القرية التي بدتْ بيوتها متناثرةً كتناثر أفكاري حول بديع الزاهر، وبدتْ لي مجموعةٌ من الأولاد بجانب قطيع من الماعز يلهون بقرصٍ بلاستيكيّ، وذلك بقذفه في الهواء نحو الأعلى، كان هذا القرص يصعد للأعلى ثمّ يعود نحو الأولاد وكأنّه ارتطم بشيءٍ ما في الأعلى، وأنا أحرّك عنقي من نافذة السيارة نحو هؤلاء الأولاد كي أرى رميةً أخرى تنحنح السائق كي أنظر إليه وسألني

عن مكان بيتنا، فأشرتُ له بيدي نحو شجرات السرو العالية.

تقدّم رجلٌ نحو السيارة؛ وهو يشير لنا بأنّ نتوقّف، توقّفتِ السيارة، فمدّ رأسه من النافذة التي بجانبي وألقى التحية وطلب من سائق السيارة أن يوصله إلى المدينة، ومِنْ ثمّ إرجاعه إلى القرية، وافق السائق على ذلك وطلب من الرجل أن ينتظر قليلاً ريثما يوصلني إلى البيت، وقمتُ أنا بدوري بالطلب من السائق بأن يمرّ عليّ بعد عودته إلى القرية كي يُرجِعني إلى المدينة إن صادف مروره مع موعد عودتي.

دخلتُ البيت وألقيتُ التحية على أهلي بوجهٍ فيه شيءٌ من الابتسام، جلسنا ورحنا نتحدّث عن بعض أموري العامّة، ومِنْ ثمّ تناولنا الطعام المُكوّن من الأرز ولحم الدجاج وبعض الخضراوات، وبعد ذلك خرجنا أمام البيت وجلسنا تحت شجرات السرو لنشرب الشاي، وكلّ الذين كانوا يمرّون من أمامنا كانوا يلقون التحية، ويدعونني لزيارتهم، كلّ الذي حولي كان يشير إلى أنّ بعض السعادة أحاطتْ بي، وأنّ الوجوه منحتْني الكثير من الاهتمام، وأنّ أولئك الأولاد الذين رأيتُهم يلهون بجانب قطيع الماعز تركوا في نفسي أثراً شعوراً جيداً يشبه القرص البلاستيكي وهو في الهواء.

إنّ الفرح يتحكّم بنا في أمكنة لا جدوى لفرحنا فيها، وفي أوقاتٍ لامعنى لها، وتمّنيتُ لو أنّي أملك القدرة على الاحتفاظ بلحظات الفرح وتوزيعها فيما بعدُ في المكان الذي أريد والوقت الذي أشاء.

كان الوقت يمرّ ببطءٍ شديدٍ، وكنتُ أعلم أن الفرح الذي أنا فيه سينتهي

بأية لحظة، وستكون هذه اللحظة مفاجئة، لذلك وددتُ مغادرة القرية بأسرع وقتٍ مُمكِنٍ، و لم أكن أريد لأحدٍ أن يُلاحِظ الضيق الذي قد يهبط عليّ فجأة.

كانتْ عيناي ترمُقان أبعدَ نقطةٍ على الدرب الترابيّ، وكان بودّي أن ألمح سيارة صاحب تلك المطرة؛ وهي تنحدر نحونا، وبذات الوقت كنتُ أرمُق قطيع الماعز وأولئك الأولاد؛ وهم يلهون بذلك القرص البلاستيكيّ.

جاءَتْ عمّتي وجلست معنا وراحت تحدّث أبي باستياءٍ عن الأطباء الذين عجزوا عن معرفة أسباب الألم الذي تعاني منه في مفاصلها، ودون أن يتفوّه أحدٌ منّا بأيّة كلمة راحتْ تتحدّث عن طبيبٍ يداوي بالأعشاب الطبية، وقالت إنّها ستذهبُ إليه في الأيّام القادمة.

وبينما كان الحديث يدور حول امرأة في القرية كانت تعاني من ذات ألم المفاصل الذي تعاني منه عمتي، اقتربت منا امرأة يصعُب تحديد عمرها بسبب التشوه الذي في وجهها وشعرها المبعثر على وجهها.

وقفتْ أمامنا ونظرتْ في وجوهنا للحظات، ثم جلست على الأرض بثيابها البالية والمتسخة، وبصوت خافت قالت لي أمي:

– إنها امرأة فاقدة لعقلها، إنها من القرية المجاورة، أتتْ منذ أسبوع لتبقى عند أختها هنا عدة أيام.

وظل الحديث يدور عن ألم المفاصل وعلاجه بالأعشاب بذات الوتيرة

دون أن يُحدث جلوس هذه المرأة أيّ أثر، ورحت أمعِن النظر فيها بقلب باردٍ إحساس ثابت غير قابل للزيادة أو النقصان.

كانت تنظر في الأرض تارة وفي وجوهنا تارة أخرى، وبحركة هادئة كل الهدوء مدّتْ يدها إلى كأس الشاي الذي أمام عمتي وأخذته ووضعته أمامها، لم يكن في الكأس سوى عدة رشفات، ودون أن تنظر عمتي إلى هذه المرأة سكبتْ لنفسها كأس شايٍ وراحت تتابع حديثها.

رشفت المرأة رشفة من الكأس وابتسمت دون أن ألمح دقة هذه الإبتسامة، وذلك بسبب نظرها في الأسفل، ثم قامت على عجل وراحت تمشي بسرعة وحيوية إلى حيث أتت.

في هذه اللحظة نظرت عمتي نحو المرأة نظرة عميقة فيها شيءٌ من الحسد، وهي تفرك ركبتيها بيديها دون أن تتوقف عن إتمام كلماتها التي خرجت منها ببطء شديد.

حاولت أن أعتصر ذاتي للحظات كي أدرك إنْ كانت هذه المرأة الفاقدة لعقلها قد رغبت في شرب الشاي كما نرغب نحن أم أنها لا تعرف شيئاً عن الرغبة.

وربما يتبادر للذهن أن وجود هذه المرأة لا جدوى منه رغم سلامة مفاصلها التي أثارت الغرابة في عيني عمتي، وسلامة ابتسامتها التي أثارت التساؤل في عينيّ.

لاحتْ لي السيارة؛ وهي تشقّ دربها من بعيد، وقفتُ استعداداً

للذهاب، وأخذتُ بعض النقود والكثير من الحليب الذي اعتدتُ على شربه، توقّفتِ السيارة وقمتُ بتوديع أهلي بذات الوجه الذي دخلت عليهم فيه.

صعدتُ السيارة وراحت عجلاتها تدلك فقرات ظهْر الدرب من جديد، مددتُ يدي من نافذة السيارة حيثُ الهواء الذي داعب أصابع يدي بطريقة تشبه راقصات الباليه وسط قوة تأثير اللحن الموسيقيّ على أرواحهنّ، وأنا أراقب أصابع يدي؛ فكّرتُ بالنزول عند بيت منار، لكنّ وجود الحليب جعلني أُقلِع عن هذه الفكرة.

وصلنا البيت دون أن يتفوّه سائق السيارة بأيّة كلمة، وكأنّه ليس ذلك الرجل الذي تحدّث في أثناء ذهابنا إلى القرية، دخلتُ البيت؛ وأنا أحمل الحليب إلى المطبخ، وتذكّرتُ أنّه كان ينبغي عليّ أن أدعو سائق السيارة لشرب كوبٍ من الحليب، وتمّنيتُ لو أنّي ملأتُ مَطرته حليباً.

جلستُ على كرسي صغيرٍ، ووضعتُ أمامي الحليب الذي رحتُ أُفرِغه بزجاجاتٍ متوسّطة الحجم، وأنا أفعل هذا؛ تنفّستُ طمأنينةً بيضاءَ تنسكب من السماء كالمطر داخل هذه الزجاجات التي سأحتفظ بها بالبرّاد لأشرب حليبها على مرّ الأيّام القادمة.

جلستُ في غرفتي أشرب الحليب وأمامي بعض الكتب والأوراق، شعرتُ بحجم التقصير الكبير في دراستي، ولكنّ مذاق الحليب مع السجائر جعلني أشعر أنّ الأمور ستكون بخير وعلى ما يرام.

جاء الليل وجاءَتْ معه رغبتي في الخروج إلى منار، خرجتُ وسرتُ في الشارع المُمتدّ بجانب المقبرة التي احتضنت جسد رشاد بين شَاهدتَين بالقرب من الرصيف، وأنا أسير بهدوءٍ كان الليل ينبض بهدوء يبعث على الحذر، وكانتْ البيوت المُطِلّة على المقبرة قد أغلقتْ أبوابها وأطفأتْ مصابيحها.

قابلتُ منار في بيته وطلب منّي أن نخرج لتناول طعام العشاء في مطعم "مجرى النهر»، ابتسمتُ لِمَا يحدث لي، وخرجنا قاصدين المطعم الذي لا يعرف منار حقيقة تاريخه بالنسبة لي، وليس بوسعه أن يعرف معنى دخولي فيه وتناولي الطعام داخل جدرانه التي سأستنشق منها ذات الرائحة التي استنشقها حين كانتْ تشكّل بيت بديع الزاهر قبل أن يتمّ هدمها لتحويلها إلى بناءٍ بثلاثة طوابقَ فوق محلاّتٍ تجاريّةٍ، ومن ضمنها هذا المطعم الذي يُدعَى: مطعم " مجرى النهر ".

وبقيتُ طوال السنوات الفائتة أتقزز من المرور بجانب هذا المطعم والبناء والمحلاّت التي تمّ تشييدها بمكانَ بيت بديع الزاهر بعد مغادرته المدينة آنذاك.

ونحن نسير؛ ظلّ منار ملتزماً بالصمت؛ وكأنّه بذات الحالة الأولى التي حطّتْ عليه في أثناء سماعه بموت رشاد، وذهابنا للمطعم يدلّ على رغبته في كسر الحالة التي يمرّ بها، وحزنه هذا على رشاد لم يكن يعني لي شيئاً أمام ما يعنيه وجوده معي في المطعم الذي سأدخله للمرّة الأولى بدافع تعرية الذاكرة بالعين المجرّدة.

رفع منار رأسه نحو السماء؛ ويداه بجيوب بنطاله قائلاً:

– مطعم "مجرى النهر" يُذكّرني برشاد، لقد تناولنا فيه العشاء قبل موته بأيّام.

وقلتُ في سرّي:

–إنّ مطعم "مجرى النهر" يُذكّرني ببديع الزاهر، لقد تناولتُ الموت فيه، وتجرّعتُ العذاب.

كان ذلك منذُ عشر سنين في ظَهيرة شديدة الحرّ، كنتُ في المقبرة أمرّر إصبع سبابتي فوق الحروف المحفورة على الشَاهدات وأنا مُغمِض العينَين كعادتي، جاءَني حينها رشاد؛ وهو يلهث وطلبَ منّي أن نذهبَ إلى ذلك البيت الذي بداخله شجرة مشمش مُثمِرةٌ ذات أغصانٍ غطّتْ حافّة الجدار الحجريّ للبيت.

قام رشاد برفعي على الجدار كي أقطف المشمش، وكان الهدوء يُخيِّم على المكان بشكلٍ يجعل الأشياء تبدو أنّها تستعدّ للانقضاض أو الصراخ.

وأنا جالسٌ على الجدار أقطف المشمش سمعتُ وقْع خُطىً من داخل البيت، وبشكلٍ مُفاجِئ أدركتُ أنّ الرجل وثب على الجدار من داخل البيت، بينما قمتُ بالقفز مِنْ على الجدار نحو الخارج، رفعتُ رأسي عن الأرض ونظرت إلى رشاد الذي مضى مُسرِعاً، فأدركتُ أنّي بقيتُ وحدي، استدرتُ نحو الجدار، فلمحتُ الرجل يهوي نحو الأرض.

قمتُ مسرعاً نحو الخلاص دون أن أضيّع الوقت في تحليل ما يجري، ورحتُ أركض في دربٍ ترابيّ يُفضي إلى العراء، وبقيتُ أركض وصدري يئنّ باسطاً يده يَستجدي بعض الهواء، وظلّ الرجل يركض ورائي كحجارةٍ تتساقط ورائي من جبلٍ عالٍ.

في البداية كان الأمر متعلّقاً بأقدام تلاحق أقدام، ولكنّ الأمر تطوّر إلى ما هو أبعدُ من ذلك، أصبح الأمر يُشبه إثبات الوجود، فلم أكن أريد الاستسلام له بعد كل هذا التعب الذي بذلته وأنا أركض أمامه، و لم يكن هو يريد التوقّف أمام إصراري الذي أراد أن يحطّمه لي بوقْع خُطاه خلفي.

وأنا أركض أمامه كان لهاثي ينشر خلفي مكتبات من الفلسفة والحكمة والدِّين وعلم الاجتماع والرياضيات والتاريخ والجغرافية، وحسبتُ أن بصري لم يعد مهماً بقدر أهمية قدمي، كان عليّ أن أظل أركض أمامه دون أن أعير أهمية للزمن الذي سأركض فيه، لكن الدرب أمامي كانت تبدو على هيئة صورة ثابتة، وكأني أركض في مكاني وسط وحل غاصتْ فيه ركبتاي، تكثّفتْ الحياة في داخلي، وفكّرتُ بحكايا السحر والشعوذة التي سمعتُها ذات مرّةٍ من جدّتي، وتمّنيتُ لو أحظى بشيءٍ من سحر تلك الحكايا، وأختفي في هذه اللحظة.

كان صوت أقدامه يحزّ قلبي الملتصق بظلّ رئتيّ المتعبتَين، وكنتُ أشعر بأنّ أقدامه تحفر الدرب ورائي بغضبٍ رهيبٍ.

كنتُ أصرخ بداخلي:

– لابدّ أن يتوقّف عن ملاحقتي، سيتعب، لابد من ذلك.

كانت الدرب تتمدّد أمامي كسيلٍ تحرّر من سدّه، وكانتْ تتقلّص خلفي ليصبح هذا الرجل على مقربة من ظهري الذي ظلّ هو الآخر يئنّ خلفي خشيةَ أن أسبقه.

وأنا أركض أمام هذا الرجل؛ كانتْ أعضاء جسدي تتحرّك بسرعة أفراد أسرة شبّ حريقٌ هائلٌ في منزلهم الذي يأوي فيه أطفال وعجائز وشابٌ ضريرٌ.

اقترب منّي و لم يعد يفصله عنّي إلا حلم رأسي الذي ظل يترنّح ويتخبّط بين كتفيّ، وأنا أهذي بداخلي:

– يجب أن يموت في هذه اللحظة.

حطّت يده على عنقي بخمس أصابع، سوّرتْ كلّ شيءٍ في داخلي، ذبح أجمل رغبة خرجت مني في تلك الظهيرة.

وجرّني نحو بيته؛ وهو يلهث بخشونةٍ ويسعل بصعوبةٍ، وأنا أسير معه لم أبكِ و لم أتفوّه بأيّة كلمة، و لم أكن بحاجةٍ للنظر أمامي ولا لتنظيم خطواتي، وذلك بسبب انتهاء مهمتي وبدء مهمته في قيادتي نحو ما ليس أعرفه.

تختلف الدرب عن الدرب وإن كانت هي ذات الدرب، وإنّ الأمور التي تدفعنا نحو مكانٍ ما هي التي تجعلنا نشعر أن الدرب تبدو قصيرةً أو طويلةً، وللدروب ذاكرةٌ رَحْبةٌ وواسعةٌ تكتب كلّ الخطوات التي سارت

عليها بدقة، ولا يمكن أن تختلط الخطوات عليها مهما تراكمت فوق بعضها، ومهما سار المرء فوق الدروب تبقى.

أردتُ أن أسمع نبرة صوته كي أتنبّأ بما يجول في داخله من فحيح، لكنّه لم يتفوّه بأيّة كلمة، وحين اقتربنا من بيته؛ أطلقتُ عينيّ المنكسرتَيْن نحو شجرة المشمش بثبات رغم قسوة جرّه لي، أدخلني بيته وكان الصمت مرعباً يبعث على النفور والهروب من جديد، رَكل باب الغرفة بقدمه فتحرّك الغبار من وجه الباب الخشبيّ، أدخلني الغرفة وكان أثاثٌ قديمٌ موزّعٌ فيها هنا وهناك، ورائحة الغبار فيها ترقُد فوق كلّ شيءٍ داخل هذه الغرفة.

وضعني في صندوق خشبيّ طوله أقلّ من طولي بقليل، وعرضه أكثرُ من عرضي بقليل، أمّا ارتفاعه؛ فكان يتّسع لِثني رُكبتيّ بزاوية حادّة، وكانتْ بضعة شقوق على محيطه لم تكن بحجم حاجتي للهواء الذي كان مروره بطيئاً عبرها.

تركني هكذا لعدة دقائق ممدّداً داخل الصندوق أنظر نحو فتحة دائريّة صغيرة على وجه الصندوق الذي كان فوقي بمثابة بابٍ مغلق.

وظلّتْ روحي راقدةً تنتظر أسرارها التي تاهتْ في عتمة الطرقات الموصلة لمصدر النداءات والأنّات، و لم تكن سنواتي الخمس العشرة قادرةً على معرفة حقيقة الذي سيفعله.

فجأة جاءَني صوته من خلال فتحة الصندوق الدائرية التي لم يكن

قطرها يتجاوز قطر فم مفتوح على اتساعه، أمرَني، أن آكل كلّ حبة مشمش يُسقطها لي من فتحة الصندوق هذه، وأن أقوم بإخراج نواة حبة المشمش بفمي من ذات الفتحة دون أن أستخدم يدي، ولقد عرف أني وافقتُ على ما أمرني دون أن أتفوّه بأية كلمة.

جلس فوق الصندوق فازدادت العتمة داخل الصندوق وساد الصمت قليلاً، ثم وضع فمه على فتحة الصندوق وتفوّه ببعض الكلمات بصوت منخفض لم يصلني منها سوى الفحيح.

قام من على الصندوق وبقيتُ جامداً إلى أن عاد صرير الصندوق من جديد حين جلس على حافته، أسقط لي حبة مشمش مرَّ مذاقُها في فمي بسلام، رفعتُ رأسي قليلاً إلى أن وصل لفتحة الصندوق، ودفعتُ بنواة حبة المشمش بفمي إلى خارج الصندوق كما أمرني، فعلت هذا بخوف كبير تجاوز حجم الصعوبة التي بذلتها لفعل هذا، ثم أسقط لي حبةً ثانيةً ذات طعم كريه للغاية فأدركتُ أنّها حبةٌ فاسدةٌ، كدتُ أن أتقيأ، ولكنّ انشغالي في دفع النواة هو مَنْ منعني عن التقيّؤ، وظلّ يفعل ذلك؛ وأنا أفعل ما أمرني به كآلة حديثة الصنع.

ركلَ جانب الصندوق بقدمه فأشعرني أني كنتُ في سُبات عميق، وأشعرني أنه غضِب من شيء ما قد بدر مني رغم كلّ الدقة والطاعة التي كنتُ أبذلها.

تتزامنُ خفقةُ القلب مع انتشار الصوت الذي يسبب هذا الخفقان، فبمجرد ما أن يركل شيئاً بقدمه يخفق قلبي بذات لحظة انتشار الصوت

دون أن يمرَّ هذا الصوت إلى دماغي كي يقوم بتحليله ومن ثم يتخذ موقفاً ما إزاء هذا الصوت، وكأن العلاقة بين الدماغ والقلب في لحظات الخوف تصبح علاقة عكسية، خفقان بالقلب ومن ثم إقرار من الدماغ بهذا الخوف.

ألصقَ فمه على فتحة الصندوق وقال لي:

– لقد جعلتَ أنفي يسيل أثناء ملاحقتي لكَ، لذلك خذ حبة المشمش هذه المبللة بمخاط أنفي.

أَسقطَ لي حبة المشمش المبللة بمخاط أنفه، وكان خوفي أكبر من أن أملك القدرة على معرفة مذاق الأشياء، مضغتُ الثمرة بكلّ ما فيها ما عدا النواة التي أخرجتها له من فتحة الصندوق.

ألصق فمه من جديد على فتحة الصندوق وقال لي:

– كدتُ أن أتوقف عن ملاحقتك في اللحظة الأخيرة.

وراح يقهقه قهقهة تشبه صوت اصطدام السيارات ببعضها أثناء وقوع الحوادث الخطيرة.

لقد أرسى غبار كلماته هذه في صدري، وأغاظني، وأحرق داخلي، وأيقظ سنواتي الخمس العشرة باعترافه هذا، وجعلني أصرخ بداخلي:

– في اللحظة الأخيرة.

وشعرت أن اللغة سخية ومعبرة وجارحة عند سماعها من الآخرين،

وكم هي بخيلة وهشة حين نريد النطق بها، وشعرتُ بندم كبير بسبب توقفي عن الركض في تلك اللحظة، اللحظة الأخيرة التي كان سيتوقف بها عن ملاحقتي.

الندم هو ذاك الذي يجعلنا مؤمنين كل الإيمان بأننا أحرار فيما نفعل، وهو الذي يملأ قلبنا بقوة تحرك فينا الإحساس بقيمة حريتنا في اتخاذ قراراتنا في المرات القادمة.

سبحنا أنا والخوف في ظلمة الصندوق، وكان كلّ واحد منا يحاول أن يُغرِق الآخر، و لم يكن لي أي خلاص سوى موت هذا الرجل في هذه اللحظة، و لم أكن أشعر باقتراب موتي داخل هذا الصندوق بقدر ما كنتُ أشعر بالخوف، وذلك بسبب اعتقادي أنّ الأحياء ليسوا معنيين بالموت، وأنّ الذين يموتون هم خلقوا ليكونوا موتى، ولا شأن لي بهم، وكذلك أمر هذا الرجل الذي أشعرني أنّه ليس معنياً بالموت.

راح ينقُر بأصابع يده على وجه الصندوق مُصدِراً إيقاعاً سريعاً تارة وبطيئاً تارة أخرى، وكانتْ قهقهته ترافق هذا الإيقاع كما المغني على إيقاع آلة موسيقية ما، توقفَ عن فعل هذا قليلاً ثم راح ينقر بكعب قدمه على جانب الصندوق إلى أن وضع فمه على فتحة الصندوق قائلاً لي:

– ابكِ، هيا، عليك أن تبكي، آن لك أن تبكي.

لم تكن نبرته بصيغة الأمر بقدر ما كانت بصيغة الرجاء والتمني، وعاوَد رجاءه هذا عدة مرات، وكاد أن يتوسل، لم أستطع البكاء، قام بضرب وجه

الصندوق بباطن يده مرة ثم برأسه مرة أخرى؛ وهو يصرخ من خلال فتحة الصندوق:

– عليك أن تبكي، أرجوك أيها الصغير.

حاولتُ أن أبكي دون جدوى، وظلّ وجهه فوق فتحة الصندوق ينتظر صعود بكائي .

رفع رأسه وساد صمت لم تستطع ضربات قلبي المتسارعة إلا أن تبدو عارية أمام سطوة هذا الصمت الذي أشعرني بانتظار شيء ما سيحدث.

وأنا في غمرة هذا الصمت؛ سمعتُ نشيج هذا الرجل شيئاً فشيئاً إلى أن تحول هذا النشيج إلى بكاء واضح، وظل يبكي؛ وصرير الصندوق يزداد إلى أن وضع فمه على فتحة الصندوق قائلاً لي:

– سترى كم أحبك، وكم أملك من الحب، فأنا سارق دهن العقول.

وأطلق ضحكة سقط رذاذها فوق وجهي، ثم قام من فوق الصندوق وسمعت صوت أثاث الغرفة دون أن أدرك حقيقة ما كان يفعله، ثم عاد ووضع فمه على فتحة الصندوق قائلاً لي:

– نعم، سارق دهن العقول، كن هادئاً، لن أتأخر عليك.

رفع رأسه وسمعتُ صوت صرير باب الغرفة، ولم أكن أعرف إن كان قد خرج أم أنّه مازال واقفاً حول الصندوق الذي أنا فيه، تارة يخيم الصمت وتارة أخرى أسمع صوت صرير باب الغرفة مع صوت وَقْعِ أقدام يكاد لا يُسمَع.

مضى بعض الوقت وكأنه الأبد، إلى أن جاءني صوت غريب استطعت أن أعرف أنّه ليس صوت سارق دهن العقول الذي صار صوته في أذني ميزاناً لكلّ الأصوات.

وكما الولادة دخل الضوء على وجهي حين تمّ فتح الصندوق، فتحتُ عينيّ على وجه أنثوي كأنّه بعض من أسباب الحياة التي تدفعنا نحو التفكير بمبرّرات الوجود، وجهٌ لم يكن يحتاج إلى احتمالات وتأويل، كلّ ما فيه يبعث على الشعور بأنّ الطمأنينة تتكاثر في ملامحه.

نظرتْ في عينيّ قائلةً:

– هيا قبل أن يأتي.

أمسكتْ بيدها يدي ورفعتْ لي رأسي بيدها الأخرى؛ وهي ترتجف وتقول:

– أسرع قبل أن ينتهي كلّ شيء، إنّه سارق دهن العقول.

أخرجتْني من الصندوق وعند باب الغرفة ضغطتْ بأصابعها العشر على كتفيّ، وأحنتْ ظهرها هامسةً لي:

– هيا أركض وكن أسرَعَ من اللحظة الأخيرة، ركضتُ دون إيمانٍ بخطواتي، وقمتُ بتأجيل هذا الإيمان في صدري إلى أن أصل بيتنا، وفي كلّ مرة أركض فيها يزداد إحساسي بتلك الأشياء العظيمة، وتندثر في داخلي أشياء لا قيمة لها، وبقيتُ أركض إلى أن وصلتُ المقبرة، جلستُ بجانب شاهدة قبرٍ ممددةٍ على الأرض، كانتْ قد تخلّتْ عن ثباتها في

التراب من كثرة الاتكاء عليها، وضعتُ رأسي على هذه الشاهدة كي آخذ قسطاً من الراحة، والكثير من الهواء الذي أحتاجه، وراح رأسي يطوف حول الشاهدات وتراءت لي الممرّات بين القبور جداولَ ماءٍ امتلأت قيعانها أسماكاً من حجارة مبعثرة هنا وهناك.

قمتُ واتجهتُ نحو بيتنا تاركاً الشاهدات ورائي شاهدةً شاهدةً، وحين دخلتُ البيت كان يعج ببعض النساء، اقتربتْ مني عمتي وأخبرتْني أنّ أمي وضعتْ مولوداً منذ قليل، مضيتُ نحو إحدى الغرف ونمتُ بسرعة من شدة الإعياء والإنهاك وتلك الأشياء.

اقتربنا أنا ومنار من المطعم، وقبل وصولنا بقليل قام منار بوضع يده على كتفي قائلاً:

– لقد وصلنا، ها هو المطعم.

وما أن دخلتُ المطعم شعرتُ أني أدخل بيت بديع الزاهر رغم هدمه وتحويله إلى هذا المطعم الأنيق بزجاجه وكراسيه وطاولاته المغطاة بقماش أصفر اللون، جلسنا في زاوية المطعم، وكان عدد لا بأس به من الزبائن قدّ توزّعوا حول الطاولات الأخرى.

رحّب النادل بنا ووقف ينتظر كي نختار نوع الطعام الذي سنتناوله، طلب منار شرائح لحم مقلية بالزيت عليها القليل من عصير الليمون، وكذلك طلب من النادل أن يسكب له على صحنِ الخضارِ المقطع بعضَ زيت الزيتون، وأن يرش عليه القليل من الفلفل الحَاد، ابتسم النادَل لمنار

ونظر إليّ، لم أكن أرغب بشيءٍ معين سوى كوب من الحليب، ولكنّي نظرتُ إلى منار، وطلبتُ من النادل أن يحضر لي ذات الطعام الذي اختاره منار.

وأنا أجول بعينيّ في تفاصيل المطعم؛ تساءلتُ في نفسي عن مكان الغرفة التي أدخلني إليها بديع الزاهر آنذاك، ورغم الهدم والبناء الذي تمّ إلا أنني شعرتُ أنّي أجلس في مكان الصندوق الخشبيّ الذي وضعني فيه، وهذا الشعور زادني اختناقاً، وجعلني أنظر في وجه منار راجياً منه في سرّي أن يحدّثني عن أيّ شيء كي أخرج من الضيق الذي يجهله عني.

راح منار يحدثني عن رشاد كأولئك الكبار حين يتحدّثون عن الموت والموتى بنبرة تكسوها المعرفة التي يزعمونها حول الموت، وتابع يخوض في تفاصيلَ أراد أن يبيّن لي من خلالها أنّه كان يشعر بأنّ رشاد سيموت عما قريب، وكنتُ أهز رأسي لمنار أثناء حديثه هذا، لكنّ رأسي كان يدرك أن حديث منار هذا أمرٌ اعتيادي، وبمقدور أيّ إنسان أن يشعر بأن شخصاً ما سيموت عما قريب، ولكنّ هذا الشعور يبقى ميتاً في داخلنا ولا يكتملِ أو يظهر فينا إلا بعد موت هذا الشخص، حينها فقط نشعر أنّ تفاصيلَ الذي مات كانتْ تدلّ على أنّه مقبل على الموت عما قريب.

ولو أنّ شعورنا هذا يأخذ حقه منا في الوقت المناسب؛ لاستطعنا ردع الكثير من محاولات الانتحار التي لا نشعر بتفاصيل مرورها داخل المنتحر إلا بعد انتحاره.

وضع النادل الطعام على الطاولة وهو يرحب بي، وذلك لأنها المرة

الأولى التي أدخل فيها هذا المطعم، و لم يكن يعلم هذا النادل أنّ حقيقة الأمر غير ذلك، فلقد دخلتُ هذا المكان قبل دخوله هو وقبل كلّ هؤلاء الزبائن وقبل فكرة تحويل بيت سارق دهن العقول إلى هذا المطعم الراكن تحت بناء تسكنه عائلات لا تعرف معنى تعاقب الحضارات وعبثية الأمكنة والثابت والمتحول.

وبينما كنت أتناول الطعام؛ شعرتُ بمرارة في داخلي، سألني منار إن كنت أشكو من شيءٍ، ودون أن أجيبه، هزّ منار رأسه وأغمض عينَيه، فانقلب وجهه إلى وجهٍ بدا الحزن عليه، ثم قال:

– وأنا كذلك حزين على رشاد.

قام منار ووضعَ بعض النقود على الطاولة، وقمتُ معه وخرجنا على عجلٍ، وسرنا معاً دون أن نتفوّه بأيّة كلمة، وحين وصلنا على مقربة من بيته دعاني لشرب القهوة، اعتذرتُ عن ذلك، فلم أكن أريد أن أتاخر كثيراً كي لا تزداد قسوة الليل عليّ في أثناء مروري من جانب المقبرة، حيثُ شَاهداتا قبر رشاد تنتظران مروري، وكأنّهما تحاولان دفع كلّ الشاهدات باللَحاق بي.

5

مرّ يومان؛ وأنا غارق في دراستي وسط الأوراق والكتب، لم أخرج إلا مرتين حين احتجتُ الطعام وعلب السجائر وبعض الورق الأبيض، وفي اليوم الثالث زارني منار؛ وهو يحمل الورد بيديه، وكان الوقت يشير إلى منتصف النهار، ودون أن أسأله أدركتُ أنّ هذا الورد لأجل قبر رشاد.

دخلتُ المطبخ وقمت بتحضير كوبي حليب، وأنا أقوم بذلك؛ أمعنتُ كعادتي في بياض الحليب، وتمنيت لو أنّ الحليب يحل محل الطعام طوال حياة الإنسان، وبذلك يصبح الحليب شريكاً للماء في بناء تركيبة الإنسان دون الحاجة إلى غذاء آخر. ويصبح الناس سواسية في تناول أنواع الطعام.

جلسنا أنا ومنار؛ والحليب بيننا ينخفض منسوبه في الكوب شيئاً فشيئاً، و لم يستطع منظر الورد الجميل الذي أتى به منار أن يطغى على جمال منظر الحليب وهو داخل كوبه الزجاجي الشفاف، ومن جهة أخرى لم تستطع رائحة الورد هذا أن تطغى على رائحة بعض الكآبة التي في داخلي، وشعرت بضرورةِ شربِ المزيد من الحليب.

بُحتُ لمنار بتفكيري في التبرع بكليتي، وكانتْ فكرة التبرع بكليتي تشكّل جدلاً وصراعاً في داخلي، وكنتُ أشعر أنّ الأمر يشبه عاموداً أفقياً يتأرجح على حجر بحذرٍ دقيق خشية السقوط، وكنتُ جاداً كلّ الجد في فكرة التبرع بكليتي.

نظر منار إليّ للحظات، ثم حرك كوب الحليب الفارغ بيده قائلاً:

– هذا أمر يشبه الانتحار يا جابر.

أشعلتُ سيجارة ورحت أفكّر في أعضاء الإنسان التي تهبه البقاء على قيد الحياة، وكنتُ مدركاً دوماً أنّ نظام حركة هذه الأعضاء وما تقوم به ليست جديرةً بالثقة، وأنّ التفكير في القلب وطريقة نبضه أمرٌ يجعل المرء يدرك حقيقة ضعفه المُحزِنة.

إنّ الانتحار هو طعن الذات عدة طعنات للتخلص من الشعور بالألم أثناء مرور الرصاصة في عصب الروح، وطعن الذات بمثابة المخدِّر الذي يُعطَى عادةً قبل إجراء عمل جراحي ما، وبمجرد التفكير بالانتحار يعني البدء بطعن الذات للحصول على هذا المخدِّر، وشيئاً فشيئاً يتخدّر المرء ويُقبِل على الانتحار دون أن يدري.

وكم يتمنّى المنتحر لو أنّه يعود للحياة بعد موته ليرمُق عيون الذين دفعوه إلى الانتحار كي يقول لهم:

– أيعجبكم هذا!!؟؟

ولا جدوى من تلك الرسالة المكتوبة التي يكتبها المرء عادةً قبل انتحاره، لأنّها لن تعبّر عن ألمه العميق ووصاياه التي تبقى ناقصة وإن تم تنفيذها بحذافيرها.

حين قام منار بشم الورد؛ وهو مغمض العينين، رحتُ أحدّثه عن شاب يصغرني بعامين، كان هذا الشاب هزيل البنية، ويجلس باستمرار أمام منزله وحيداً، كنتُ ألقي عليه التحية حين أمرّ من أمامه، و لم أكن أعرف عنه أي شيء، كان يكتفي بهزّ رأسه كَرَدٍّ على تحيتي، وأكثر من مرة تمنيتُ لو أنّه يدعوني للجلوس معه أمام بيته، لكنّه لم يفعل ذلك، وكنتُ أشعر أنّ هذا الشاب مقبلٌ على الانتحار، لذلك كنتُ أمر بين الحين والآخر من أمام بيته كي أرى إن كان على قيد الحياة أم أنه انتحر، كنتُ أفعل هذا بدافع لا يختلف كثيراً عن الدافع الذي كان يدفعني للذهاب إلى باب بيتي في أثناء الليل كي أتأكد من أني أغلقت الباب خلفي.

سألني منار عن مكان بيته فحددت له ذلك، وعلى عجلٍ وصف منار لي شكل هذا الشاب الهزيل بأدقّ التفاصيل فأجبته:

– نعم هذا هو شكله بالضبط.

أرخى منار وجهه قائلا:

– إنه منصور، كان مصاباً بمرض خبيث في دماغه، مات منذ شهور.

حين قال منار لي هذا، شعرتُ برعشة جعلتْني أقلع عن متابعة الحديث الذي كنتُ أودّ سرده على منار حول الانتحار بتفاصيله الصغيرة التي تتراكم في دهن المرء إلى أن تنمو بشكل مفاجئ وسري لتدفع به إلى فكرة الانتحار.

خرجنا أنا ومنار إلى المقبرة، و لم تكن المسافة بين بيتنا والمقبرة تسمح لي أن أهيئ نفسي للوقوف في حضرة قبر رشاد بشاهدتيه، تركتُ الأمر مفتوحاً لكلّ الآثار التي قد تمسني أثناء هذا الوقوف.

كانت الشاهدات واقفة ومائلة ومتكئة ومستلقية، لا تختلف كثيراً بشكلها هذا عن شكل الأحياء، والممرات بين القبور بدأت تضيق عمّا كانت عليه، وبعض القبور كانت أشبه ما تكون بالسدود التي أُقيمت على هذه الممرات، و لم يكن الرصيف يسمح للقبور بالامتداد نحو الشارع والبيوت التي يفصلها عن المقبرة هذا الشارع، فالامتداد كان يزداد نحو تلك الجهات الثلاث التي لم يكن يحدّها أي رصيف، لكن هذا الامتداد بدأ يقترب من بعض البيوت القريبة من هذه الجهات الثلاث، أو ربما أن البيوت الحديثة البناء هي مَن بدأت تقترب من هذه الشاهدات.

وضع منار الورد على القبر بوقار شديد، وجلس على حجر صغير بجانب شاهدة القبر، ووضع وجهه بين يديه وهو يرمُق نقطة ثابتة في الحجارة الموزّعة فوق القبر، كأنّه يهيئ نفسه للبكاء.

بقيتُ واقفاً قليلاً ثم أحنيتُ ظهري ووضعتُ يدي على ركبتيّ، أمعنتُ النظر في شاهدة القبر وتذكرتُ كلماته الأخيرة في بيت منار حين قال لي:

– دعني أراك غداً.

ومنصور ربّما ودّ رؤيتي هو الآخر قبل موته، وربّما كان ينتظر مني أن أدعوه للمسير معي حين كنت أمر من أمامه، كلّ هؤلاء الموتى ودّوا رؤية أحد ما قبل موتهم، ووحده المنتحر الذي لا يودّ رؤية أحد قبل انتحاره، لكنّه يودّ رؤية الكثيرين بعد انتحاره لو كان بمقدوره ذلك كي يقول لهم:

– أيعجبكم هذا!!!

جلستُ عند شاهدة قبر رشاد ورحت أمرّر إصبعي داخل حروف اسم رشاد المحفورة على وجه الشاهدة، و لم أغمض عينيّ كما كنت أفعل ذلك، وبقيتُ أنظر في نقطة ثابتة على وجه الشاهدة إلى أن فقدتُ التركيز لشدة التحديق، فَرَكتُ عيني بإصبعي بهدوء كما المِروَد فوق العين.

تأثر منار بحركتي هذه وراحت عيناه تُطلقان الدمعات المحبوسة داخل صدره، قمتُ وانتصبتُ كالشاهدة ونظرتُ في حجارة المقبرة وشاهداتها وترابها وممرّاتها، وأنا أتنفّس بعض وجودي وسط هؤلاء الموتى.

ربّتُّ على كتف منار وسرتُ بين ممرّات القبور تاركا منار ورائي يئنّ على قبر رشاد، جلستُ عند قبرٍ سانداً ظهري على شاهدته العريضة، وأغمضتُ عيني ورحتُ أتذكر كنانة وحوارها معي عند هذه الشاهدة،

كان ذلك بعد عدة شهور من حادثة الصندوق الذي وضعني زوجها فيه، جاءت حينها إلى المقبرة كي تضع الورد على قبر أحد ما، كان الأولاد يطاردون ديكاً هزيلاً بين ممرّات القبور، ومَنْ يمسك هذا الديك يقوم بقلع ريشة منه، ويثبّتها بخيطٍ رفيعٍ حول رأسه كإشارة تدل على تفوقه على الآخرين.

كنتُ جالساً عند الشاهدة أنْحَتُ حجراً صغيراً بسكينٍ حصلتُ عليها من القمامة، وكنتُ أفضّل نحت الحجارة على اللعب مع بقية الأولاد، وذلك بعد حادثة الصندوق، و لم أبُح لرشاد بالذي حدث لي، وذلك لشدة الخوف الذي عانيتُ منه.

وأنا أنحتُ ذاك الحجر فإذا بكنانة تقف فوقي وبيدها الورد، كأنّ السماء نثرتْها ورداً فوق هؤلاء الموتى، وجه لا يحتاج لأن يبتسم، وعينان خضراوان ترقدان في أعلى الصرح الذي اسمه كنانة، صرحٌ عليه قماش أسود رقيق، راح الهواء يحاول أن يعبث ببعض شعرها الممدّد على زاوية جبينها الهابط فوقي وفوق الحجر الذي كنت أنحته.

وضعتْ يدها على رأسي قائلة:

– أنا كنانة زوجة سارق دهن العقول،هل تذكر؟

قلتُ لها بشيء من الفرح والخوف:

– نعم.

ابتسمتُ وضحكتْ ضحكةً حبستْها في صدرها قائلة:

– إنّه زوجي، أنا ولا أحد سواي، أحبّه حتى الصداع.

خرج الأولاد من المقبرة وهم يطارِدون الديك الذي استطاع الخروج من بين ممرّات القبور، جلستْ كنانة بجانبي وراحت تحدثني بنشوة عن زوجها سارق دهن العقول، وعن حبها له وعن السحر الذي يمتلكه، وقدرته على فهم الآخرين، إلى أن وضعتْ عينيها في عيني وقالت:

– أن تعرف حقيقة هذه الشاهدات أهون عليك من أن تعرف حقيقة بديع الزاهر.

ولا أعرف إن كانتْ الطمأنينة التي سرت داخلي؛ وهي تحدثني عن بديع الزاهر طمأنينة فيها شيء من الحقيقة أم أنّها طمأنينة مزيفةٌ كنتُ أحتاجها كي أتفادى بها الخوف الذي يصيبني أثناء ذكر بديع الزاهر.

وتابعتْ كنانة حديثها عن رؤيتها الأولى لبديع الزاهر، كان ذلك في العاصمة حين كان يمرّ على أبيها لشرب القهوة التي كانت تصنعها وتقدمها بيدها لبديع الزاهر، وكان أبوها يردّد اسم بديع الزاهر بكثافة على مسمعها، وذكرتْ لي كيف كان اسمه يجعلها تكبُر شيئاً فشيئاً إلى أن شعرتْ أنّ هذا الرجل سيصبح زوجاً لها رغم فارق السن الكبير الذي بينهما.

نظرتْ كنانة إليّ نظرة فيها الكثير من القلق المُفاجِئ وقالت:

– تضيق المدينة حين يسير بديع الزاهر فيها.

نظرتُ إليها بقلق؛ وأنا أمضغ ريقي، ثم قالت:

– يجب عليك أن تبتعد عن الأمكنة التي يكون بديع الزاهر فيها، كان يراك حين كنتَ تسترق النظر إلينا في شوارع المدينة.

في حقيقة الأمر كنتُ أتردد بحذر حول بيت بديع الزاهر، وذلك بعد شهر من حادثة الصندوق، كنتُ أود أن أرى كنانة؛ وهي تخرج من بيتها، لكنّها لم تكن تخرج إلا وبديع الزاهر معها، فكنتُ أكتفي بنظرات سريعة دون أن يراني، وأكثر من مرة رأيتُهما في سوق المدينة مصادفة، كانتْ كنانة تلتصق به كما الظل بصاحبه، وربّما قِصَرُ المسافة التي بيننا وارتباكي هما مَنْ جعلا بديع الزاهر يلاحظ وقوع عينيّ عليهما، وأشعرتْني كنانة بتحذيرها لي أنّه قادر على معرفة وجهي من بين مئات الوجوه.

وأنا بلحظات القلق هذه نظرتُ إلى كنانة ورحتُ أنحتُ بالحجر متمنياً لو أنّني أستطيع أن أنحتَ وجهي بحيثُ أجعله وجها آخرَ لا يمكن لبديع الزاهر أن يعرفه.

وضعتْ كنانة يدها على يدي وقبّلتْ رأسي، وقالت لي:

– سيَرى كم أحبه، وكم أملك من الحب، سأكتب اليوم قصيدة جديدة.

عاد الأولاد إلى المقبرة وهم يتراكضون، وكان رشاد هو من استطاع إمساك الديك ونزع ريشة منه ووضعها على رأسه.

قامتْ كنانة وقمتُ معها وتوجهتُ إلى البيت، وفي الصباح تردد خبر انتحار كنانة شنقاً على شجرة المشمش تلك.

كانتْ الجموع تحيط ببيت بديع الزاهر، وذهبتُ يومها إلى البعيد حيثُ العراء.

وجلستُ على تلك الصخرة المزروعة فوق مرتفعٍ بسيطٍ وتبولت حتى آخر قطرة.

وبعد عدة شهور عرفتُ أنّ كنانة تم دفنها في العاصمة، وأنّ بديع الزاهر غادر إلى العاصمة.

وبعد انتحار كنانة شعرتُ أن نموّي يزداد أسرعَ من غيري، وأنّ صفحات الحياة متشابهة رغم اختلاف الكلمات المكتوبة عليها، ولا شيء في الحياة سوى انتظار مرور الوقت للوصول لتلك الرعشة التي تصيبنا أثناء قلب الصفحة الأخيرة من صفحات الحياة ذات الغلاف السميك والورق الرقيق والكثيف بين قسوة هذا الغلاف.

وأنا أتذكر تلك الأحاسيس التي مستْني من جديد عند الشاهدة قام منار بوضع يده على كتفي بعد أن ترك قبر رشاد وراءه وحيدا، أمسكتُ يده وأجلستُه بجواري، وكانتْ عيناه الخضراوَان قد اغتسلتا بالدمع الذي ذرفتُه على قبر رشاد.

وأنا أمعن النظر في عيني منار؛ لاحظتُ أن أمراً ما جعل منار يمعن النظر بشكل مفاجئ نحو قبر رشاد، استدرتُ نحو قبر رشاد فشاهدتُ رجلاً يقف عند قبر رشاد، رغم الخوف الذي هزني إلا أنّي استطعتُ أن أحافظ على رباطة جأشي، لم يكن يحمل ورداً ليضعه على قبر رشاد، فقط كان

واقفاً كشاهدة ثالثة على قبر رشاد، طلب منار مني أن نذهب صوب قبر رشاد كي نلقي التحية على بديع الزاهر ونشاركه الحزن من جهة ونواسيه من جهة أخرى، نظرتُ لمنار وهمست له:

– دعه يبكي وحده، لا نريد أن نفسِد عليه خلوته.

رحتُ أختلس النظر إلى بديع الزاهر بحذر من جانب القبر، بينما منار وضعَ رأسه على مقربة من ركبتيه المسوَّرتين بيديه، وراح يرمُق نقطة ثابتة بين قدميه دون أن يدرك حقيقة ما يحدث لي وأنا أختلس النظر إلى بديع الزاهر.

كانت المقبرة خالية من أي شيء يستطيع أن يعبث بالإحساس الذي حطّ في داخلي، وأنا أتنفس تفاصيل بديع الزاهر وهو يرمُق قبر رشاد، وكانت المسافة بيننا مخادِعة ومزيفة، فلم تكن مجرد عدة شاهدات وقبور وموتى، كانت كالمسافة الواقعة بين أحدٍ مغمضِ العينين وصفعةٍ سيتلقاها دون معرفة لحظة وقوعها.

قَبَّلَ بديع الزاهر زاوية شاهدة قبر رشاد، ثم راح يزيل الحجارة من فوق قبر رشاد ويضعها جانبا، وبحركة سريعة حرّك التراب الجاثم فوق القبر، وكأنه كان يضحك أثناء هذا، ثم راح ببطء شديد يعيد وضع الحجارة فوق التراب، لكنّه كان يمعن النظر في كل حجر يعيده، وكان فعله هذا يدل على أنّه يقوم بترتيب وضع الحجارة فوق التراب بطريقةٍ ليست عشوائية، وبعد هذا جلس بهدوء عند الشاهدة الأخرى، ووضع جبينه على الشاهدة دون أن يحرّك ساكناً، وفجأة قام على عجل وأمسك الورد

الذي قام منار بوضعه، وراح ينثره على القبر؛ وهو يضحك بوجهه دون أن يصدر صوتا.

قيامه المفاجئ هذا جعلني أشعر بالنفور الحادّ وجعلني أتذكر ما قالتْه لي كنانة:

– تضيق المدينة حين يسير بديع الزاهر فيها.

أخفضتُ رأسي حين بدأ ينظر إلى مَنْ حوله، وجلستُ كجلسة منار، ومضى بعض الوقت؛ وأنا ومنار على هذا الحال، إلى أن نظر منار إليّ وطلب مني أن نذهب، وقبل أن أجيب منار نظرتُ إلى قبر رشاد وشعرتُ بالارتياح حين شاهدتُ القبر وحيداً، وأن بديع الزاهر قد تركه وغادر المقبرة.

خرجنا أنا ومنار من بين ممرّات القبور دون أن نقترب من قبر رشاد، ومضى كلّ واحد منا إلى بيته، وقبل أن أدخل البيت نظرتُ خلفي نحو شاهدات الموتى قائلا:

– مَنْ يحسد مَنْ، الأحياء أم الموتى؟؟!!

6

استيقظتُ في الصباح الباكر على كابوس كان بديع الزاهر سيّدَه، كان يجرّني من فراشي نحو بيته، وقام بوضعي في ذاك الصندوق وعذبني كما عذبني في تلك الظهيرة، لكنّ كنانة لم تخلّصني كما خلّصتْني في حقيقة الأمر، بل أتتْ وألقتْ رأسها على صدر بديع الزاهر، وهي تقول لي:

– إنّه سارق دهن العقول، أحبّه حتى الصداع.

وظلاّ يضحكان فوقي وأنا أنظر إليهما من ثقب الصندوق إلى أن استيقظتُ فَزِعاً.

خرجتُ من غرفتي وألقيتُ نظرة نحو السماء، وكان الهواء قادراً على

دغدغة الروح بشيءٍ من الفرح رغم الكابوس الذي أيقظَني، وفي هذه اللحظات فكرتُ بأن أمارس رياضة الجري وذلك في شارع طويل يقع على أطراف المدينة من جهة الجنوب، وهذا الشارع يُعتبر الشارع الأكثر ارتياداً من قبل الأشخاص الذين يمارسون هذه الرياضة التي تتيح للمرء توازناً نفسياً ومرونةً في البنية، ولكني ترددتُ وذلك تفادياً للشعور الذي أخشى أن ينتابني أثناء الركض.

لم يكن الوقت يسمح لي بالذهاب إلى منار، و لم أكن قادراً على معاودة النوم من جديد، لبستُ ثيابي وخرجتُ من الشارع الفرعي دون أن أمرّ من طريق المقبرة وسرتُ إلى ذلك المكان حيثُ العراء، إلى أن وصلتُ تلك الصخرة المزروعة فوق مرتفع بسيط، جلستُ عليها وبُلتُ حتى آخر قطرة.

توجهتُ نحو مركز المدينة، ورحتُ أسير في الشوارع وكان الصباح يوقظ الناس ويدفعهم نحو الشوارع شيئاً فشيئاً، وأنا أتنفّس الصباح؛ راوَدَني شعور بأنّ الموت دائماً يختار الأرواح في الصباح الباكر حيثُ يكون المرء قد هيّأ نفسه طوال الليل لهذا الموت دون أن يشعر أحد به.

مررتُ على محلٍ يقدم الحليب مع قطع معجنات صغيرة، كان صاحب هذا المحلِ في الخمسين من عمره، وكان بياض لباس عمله وشعره كما الحليب تماماً، وكانت حركاته تدل على أنّه قد نام جيداً قبل أن يفتح محله باكراً، فالنشاط الذي يبديه يضيف متعة وحيوية لروح الزبائن الذين يأتون إليه لشرب الحليب قبل المضي لأعمالهم.

رحّب بي بابتسامة وهو يسكب الحليب في كوب زجاجيّ لرجل جلس على كرسي خشبيّ بجانب رجل مسن، طلبتُ منه أن يسكب لي كأساً من الحليب دون أن أطلب قطعاً من المعجنات التي لا أفضلها مع الحليب.

كانت وجوه الزبائن مضطربة الملامح، وتحمل خلف جلدها الكثير من البؤس الذي لم تستطع العيون أن تخفي منه إلا القليل، وكانوا يشربون الحليب على مهل مبَالَغ فيه، وأشعرني شربهم للحليب بهذه الطريقة أنّهم يودّون البقاء على هذا الحال دون القيام للذهاب إلى أعمالهم اليومية التي تنتظرهم كما في كلّ صباح.

وأنا أتناول كوب الحليب من يد صاحب المحل؛ سمعتُ الرجل المسن يطلب كوباً آخر، أخذتُ الكوب الساخن وجلستُ أمام المحل على كرسي خشبيّ دون مسند للظهر لا يتجاوز ارتفاعه نصف المتر، رشفتُ الرشفة الأولى من كوب الحليب فسرَى مذاق الحليب بداخلي بعد أن أغمضتُ عينيّ للحظتَين بسبب سخونة الحليب، كانتْ رشفة طيبة المذاق، وما أن فتحتُ عينيّ كان كلّ شيءٍ مازال على حاله.

أشعلتُ سيجارتي وأطلقتُ نظري هنا وهناك، وكانتْ رائحة الخبز القادمة من المخبَز القريب تشبه رائحة الورد، ولو لم أكن أعرف رائحة الخبز من قبلُ لكنتُ اعتبرتُها رائحة وردٍ حقيقي، وكانتْ السيارات من أمامي تحجُب عني رؤية أصحاب المحلات وحركاتهم في الطرف الآخر، نظرت جانباً إلى صاحب محلّ يمسح زجاج محله من الخارج وهو يهز رأسه

ويحدث نفسه حول أمرٍ حدث أو ربما سيحدث.

وأنا أتابع شرب كوب الحليب على مهلٍ مرّتْ سيارة ببطء شديد من أمامي يقودها صديق لي لم أعد أراه منذ زيارتي له في العام الماضي حين أجرى عملية في القلب، ألقى التحية عليّ من نافذة السيارة وقال لي:

– اعذرني على عدم التواصل.

قلتُ له:

– لا بأس، كيف وضعك الصحيّ؟

صوت بوق سيارة خلفه جعله ينظر عبر المرآة، ثم نظر إليّ قائلاً:

– تبّاً لأبواق السيارات فهي لا تدرك أنّي مريض قلب، إلى اللقاء يا جابر.

مضى بسيارته مسرعاً، وقام سائق السيارة الذي كان خلفه بإلقاء نظرة قاسية في وجهي، وذلك لأنّي كنتُ سبباً في تعطيل حركة السير حسب ظنه.

أشعلتُ سيجارة ثانية وطلبتُ كوب حليب ثانياً ورحت أجول بنظري كما الذي يبحث عن شيءٍ ليس له، ولا يدرك صفات هذا الشيء الذي يبحث عنه، استطعتُ أن ألمح رضوان اليوسف أستاذ الرياضيات؛ وهو يمر على الرصيف الآخر يحمل الخبز بيديه ونظره ثابتٌ نحو الأمام، قمتُ وأعطيتُ صاحب المحلّ ثمن كوبَي الحليب ولمحتُ الرجل المسنّ ما زال جالساً في ذات المكان يشرب الحليب.

ومضيتُ أسير في شوارع المدينة بعيداً عن شارع مطعم "مجرى النهر"، وبينما أنا أسير على رصيف شارع طويل رحتُ أفكر بوجود بديع الزاهر في هذه المدينة وحين استدرت خلفي ونظرت في الفراغ الجاثم فوق الرصيف أدركتُ أنّي استدرتُ خلفي لأطمئن أنّه ليس خلفي، ليس هو خوفاً بقدر ما هو تقزّز يصيب جلدي من عند خاصرتي، فوجه هذا الرجل يُشعِرني أنّه قادرٌ على جعل عضلات فخذي تُصَاب بالشلل إذا ما نظرتُ إليه عن قرب، لم أفكر بقتله وكلّ الذي أفكر به هو موته الذي طال، ولا أعرف إن كان موته سيكون كفيلاً بأن أنساه أم سيجعلني أندم على عدم معرفة حقيقة هذا الرجل الذي أتوق لبكائيّة منه وهو يشرح لي الإحساس الذي دفعه لتعذيبي بتلك القسوة ولمعرفة حقيقة انتحار كنانة.

إنه أمر يشبه رصاصة وحيدة مع عصفور، فليس بوسع رصاصة وحيدة تدرك معنى الخيبة أن تثق بنفسها كلّ الثقة بإصابة عصفور، وليس بوسع عصفور يدرك معنى الموت أن يثق بنفسه كلّ الثقة بالنجاة من رصاصة وإن كانت رصاصة وحيدة.

انعطفتُ في شارع ورحتُ أراقب الناس وهم يشترون بعض الأشياء من المحلات، كانتْ الحركة تبعث في النفس على حب الشراء، أو السؤال عن سعر بعض الأشياء دون شرائها، فالحديث مع أصحاب المحلات يجعل المرء يشعر بشيءٍ من الحرية حين لا يناسبه السعر وبشيءٍ من العطاء حين يُقبِل على الشراء.

جاء وجهي بوجه صاحب سيارة الأجرة الذي أوصلني وأعادني من

القرية حين زرتُ أهلي في ذلك اليوم، تبادلنا التحية؛ وهو يضع بعض الأشياء في صندوق السيارة، وحين قررتُ أن أعتذر منه لعدم دعوته في ذاك اليوم لشرب الحليب باغتني قائلاً:

– ما أخبار أهلك في القرية؟

قلتُ له:

– هم بخير.

ثم فتح باب سيارته وجلس خلف المقود ولوّح لي بيده، ثم مضى وهو يشرب الماء من مطرته تلك.

لقد قلتُله إن أهلي بخير، ولا أعرف إن كانتْ عمتي بخير أم لا، ولو أنه سألني ونحن في ظرف غير هذا الظرف لكنتُ حدثته عن عمتي التي هي ليستْ بخير على ما أعتقد. لكني على يقين تام أنَّ مفاصل المرأة الفاقدة لعقلها بخير .

توجهت نحو بيت منار، ضغطتُ على جرس البيت، ففتحتْ نينار الباب، وهذه المرة الثانية التي أشاهد فيها نينار، كانتْ في الثلاثين من عمرها، وكانتْ جميلةً ما يكفي لشرود أحدما إذا ما وقعتْ عيناه عليها، ولا أعتقد أنّ ثمة فارقاً لو أنها قامتْ بغسل وجهها أو عدم غسله، وحين قامتْ بإزالة قسمٍ من شعرها عن نصف وجهها بدا وجهها كأنَّهُ جرسٌ نحاسيٌّ فوق كنيسة في صبيحة يوم الأحد، وطولها يجعلها تبدو أكبر من عمرها إذا مانظر إليها أحد من بعيد، قدَّمَها لي منار حين قدّمتْ لنا القهوة ذات مرة في غرفة منار، وجلستْ حينها معنا قليلاً، و لم تتحدثْ واكتفتْ

بالنظر إليّ تارةً وإلى صورة جدتها المعلّقة تارةً أخرى، وحين خرجتْ من الغرفة نظر منار إليّ قائلاً:

– أختي نينار، أصبحتْ قليلة الكلام، إنها ذات حظٍ سيءٍ.

وتابع منار يحدثني عن المشكلة التي وقعت بينها وبين أبيها الذي عارض زواجها من زميلها الجامعي الذي كان يدرس معها في العاصمة، وعن حبهما الذي أثمر بالزواج رغم كل الصعاب، إلا أنّ هذا الزواج لم يستمر سوى سنة واحدة بسبب وفاة زوجها غرقاً حين كان مع أصحاب له يسبحون في إحدى البحيرات، كان ذلك منذ ثلاث سنوات.

قلتُ لمنار:

– وماذا حصل بعد؟

أجابني منار قائلاً:

– هي الآن تتابع دراساتها العليا في العاصمة.

رحبتْ بي نينار؛ وأنا أقف أمام البيت، شعرتُ بشيءٍ من الخجل منها وأنا أسألها عن منار ،وحين تثاءبت أصابني حرج بسبب مروري بوقت غير مناسب، ألقتْ نينار نظرة في الشارع ثم نظرت إلي بوجهها الجميل الذي يبتعد بملامحه عن ملامح وجه كنانة رغم جمال الوجهين معاً.

قالتْ نينار؛ وهي تحكّ فروة رأسها برؤوس أصابعها:

– إنّه نائم.

قلتُ لها:

– حسناً، حين يستيقظ قولي له بأنّي أنتظره في البيت.

انتظرتُ أنّ تهز رأسها أو أن تقول لي شيئاً كي أشكرها وأمضي إلى البيت، لكنها عادتْ ونظرتْ في الطرف الآخر من الشارع ثم نظرتْ نحو السماء، وهي تتثاءب من جديد ثم قالت:

– ربما سيتأخر حتى يستيقظ، لقد سهرنا حتى الفجر في بيت أهل صديقكم رشاد.

حين ذكرتْ اسم رشاد هزتْ رأسها ببطء كحركة أرادتْ منها التعبير عن الأسى، إلا أنها ابتسمت قائلة:

– كانتْ سهرة عائلية ممتعة.

ابتسمتُ لها وشكرتُها وما أن سرتُ عدة خطوات حتى نادتني، توقفتُ مستغرباً ونظرتُ إليها، هزتْ لي رأسها وأشارتْ لي بيدها بأن أعود للوقوف على مقربة منها ،عدتُ ووقفتُ أمامها، رمقتْني بعينين صاحيتين ثم قالتْ:

– أريد أن أتحدث معك بأمر هام.

وبحركة سريعة بيدها طلبت مني أن أنتظر قليلاً، دخلتْ وتركتْ الباب مفتوحاً، و لم أكن أستطيع أن أتنبّأ بالذي تريده مني، عادتْ وهي تلهث، نظرتْ في عينيّ نظرةً حادة وفي يدها ورقة ثم قالت:

– سمعتُ أنك شاب جيد، فهل تحفظ السر يا جابر؟

هززتُ لها رأسي موافقاً دون أن أدرك حقيقة الأمر، ثم أعطتْني الورقة وطلبتْ مني أن أزورها في العاصمة على العنوان الذي في الورقة.

ورجتْني أن أزورها في العاصمة خلال هذا الأسبوع، وقالتْ إنها ستسافر إلى العاصمة بعد ساعات، وإنّ الوقت والمكان لا يسمحان لها بالحديث معي الآن، وضعتُ الورقة في جيبي ووعدتُها بأنّ أزورها وسرتُ ويدي في جيبي حيث الورقة، أشعلت آخر سيجارة من علبة السجائر وانتبهتُ إلى ضرورة المرور على السوبر ماركت لشراء علب سجائر وبعض الأشياء، رميتُ سيجارتي عند باب السوبرماركت بعد أن سحبتُ أكبر قدر ممكن من دخانها دون أن أتجاوز منتصفها، دخلتُ السوبر ماركت من بابه الزجاجي الشفاف الذي يمنح رؤية الأشياء كما الأسماك في حوض ماء صاف، وأنا أتجوّل بين الرفوف الموزعة داخل السوبر ماركت لمحتُ عجوزاً تمسك إحدى المعلبات وتمعن النظر في تاريخ إنتاجها وانتهاء صلاحيتها وهي تتمتم بصوت منخفض، وكان بعض الزبائن يقفون أمام الرفوف وهم ينظرون في الأشياء بطريقة هادئة للغاية ثم يمضون نحو المحاسب وهم يحملون أشياءهم من أجل دفع الحساب ويخرجون دون أن يكونوا قد نطقوا بكلمة واحدة أثناء تواجدهم في السوبر ماركت سوى عبارات التحية والشكر، وذكّرتني هذه الحالة بطقوس دفن الموتى والتي تسير عادة بطريقة آلية حيث يكون الناس فيها متشابهين في الحركة والكلام وكل شيء يسير بسلام وفق معيار ينتهي بانتهاء مراسم الدفن ثم تعود الفوضى البشرية في النفوس من جديد.

أخذتُ بعض المعلبات وبعض السكر والشاي والقهوة والقليل من الخضروات وخمس علب سجائر، وعدتُ ونظرتُ نحو تلك العجوز التي مازالتْ تصرُّ على النظر في أسفل كل المعلبات الغذائية التي تريد شراءها كي تتأكد من التاريخ المدوَّن عليها.

دفعتُ الحساب وخرجتُ دون أسحب باب السوبر ماركت وذلك أن خروجي وافق دفع أحد الزبائن للباب فأتاح لي ذلك الخروج قبل دخوله.

دخلتُ البيت وصنعتُ فنجان قهوة وجلستُ أنظر في ورقة نينار، كان خطها يدل على أنها أمسكتْ القلم من أسفل مؤخرته بقليل، وأنها لم تضغط على القلم وذلك لإعطاء القلم حرية أسرع في الحركة، وكان العنوان مفصلاً ويبدو سهلاً.

ويبقى أمر لقائنا غامضاً وغريباً.

رحتُ أفكر بكل كلماتها التي قالتها لي كلمةً كلمة، ولا أعرف على ماذا استندتْ حين قالتْ إني شخص جيد، واعتقدتُ أنها قالت ذلك من قبيل الذوق واللباقة أو أنها أرادتْ قول ذلك كي تفتح لي شهيتي على استلطاف مطلبها في حفظ السر، وفكرتُ في كلماتها حين قالت لي:

– كانت سهرة عائلية ممتعة.

وتساءلتُ إن كانتْ نينار قد قصدت متعة لامستْها وحدها، أم أنها متعة لامست أفراد عائلتها وعائلة رشاد، ربما قصدتْ تلك المتعة التي

يحظى بها المرء أثناء مواساة من فقدوا فرداً من أفراد أسرتهم، ولا سيما أن موت رشاد لم يزل حديثاً.

سمعتُ طرقات على باب البيت، ولم أجهد نفسي في التفكير والتخمين، وذلك لظني الذي دفعني نحو أن مَن يطرق الباب هو منار، وضعتُ ورقة نينار داخل كتاب كان علي أن أنتهي من دراسته، قمتُ بلهفة نحو الباب وفتحتُه فإذا بأستاذ الرياضيات رضوان اليوسف يقف أمام الباب والكثير من التوتر بادٍ على وجهه، وجعلني توتره هذا أنسى الترحيب به، بقيت أنظر في وجهه إلى أن حرك ملامح وجهه بابتسامة جافة، وما أن ابتسمت له حتى قال لي:

– لا تسألني كيف عرفتُ بيتك، هذا هيّن على لاعب شطرنج مثلي.

رحبتُ به وطلبتُ منه الدخول، لكنه رفض ذلك لضيق وقته، وطلب مني أن أزوره هذا المساء في بيته لحضور لقاء تحدٍ بالشطرنج بينه وبين رجلٍ محترف، وتابع حديثه بوجه حاد ونظرٍ ثابتٍ في عينيّ عن قيامه بدراسة حول علاقة الشطرنج بضعف الإنسان وذلك لعدم تمكن الإنسان من إيجاد صيغة حسابية يستطيع بها أي فرد في الوصول إلى التعادل مع أي فرد آخر مهما بلغ من الذكاء.

كان رضوان اليوسف يتحدث معي كما يتحدث سجين مع زائره من خلف القضبان، فلقد أشعرني أن قضباناً بيننا وأن الوقت المخصص للزيارة يمضي على عجلٍ.

ضغط بحاجبه على إحدى عينيه وكاد أن يغلقها ونظر بعينه الأخرى نحو منتصف باب البيت وكأنه يفكر بكلمات ينهي بها كلامه، بينما أنا رحت أنظر نحو شارع المقبرة الذي سأحاول عدم المرور منه وسأعتاد على ذاك الشارع الفرعي.

وإن كان يتطلب مني مسيراً أكثر في الوصول إلى مركز المدينة.

قال لي بنبرة فيها الكثير من الوقار:

– أعتذر منك مرة أخرى على فوزي عليك في ذلك اليوم.

ثم غيّر نبرته فجأة حين قال لي بحماس:

– عليك الحضور هذا المساء.

قلتُ له:

– سأحاول ذلك.

قال لي وهو يبتسم:

– ستأتي أنا متأكد من ذلك، يجب أن تأتي.

ومضى على عجلٍ في شارع المقبرة، وتركني واقفاً على الباب أنظر في الأفق الذي رسم خطاً رفيعاً يفصله عن شاهدات المقبرة المترامية فوق مرتفع يكاد أن ينفجر على كلّ مَنْ حوله.

أغلقتُ الباب خلفي ودخلتُ الحمام لأغتسل بماء فاتر، جلستُ تحت الماء مطلقاً لروحي فسحة من السمو بين جسدي والماء، وكانتْ حبات

الماء كراقصات الباليه الرشيقات، وكان وجهي تحت الماء نوافذ بستائر قماش تهتز لنسيم يقف ليبُث عبقاً داخل النوافذ دون أن يدخل.

بعد أن خرجتُ من الحمام تناولتُ القليل من الطعام ثم جلستُ أنتظر منار.

وأنا أفكر بالتبرع بكليتي سمعتُ طرقات على الباب، فتحتُ الباب لمنار ودخلنا، أعتذر مني بسبب نومه أثناء مروري عليه، وتقبلتُ اعتذاره اللطيف بلطف ثم راح يحدثني عن سبب نومه الذي طال إلى هذا الوقت، وما أن ذكر اسم بديع الزاهر حتى شعرتُ أن وجهي مبلل بماء شديد الملوحة وأنّ فمي أُصيب بجفاف سريع لا يمكن احتماله، تركتُ منار دون أن أعطيه الوقت في متابعة حديثه الذي بدأه عن سهرتهم العائلية في بيت أهل رشاد حيث بديع الزاهر الذي كان ساهراً معهم، دخلتُ المطبخ كي أحضر الشاي، وظلتْ تفاصيل السهرة التي لم يبُح منار بها بعدُ تغلي في داخلي إلى أن راح الماء يغلي داخل إبريق الشاي، شربتُ كوب ماء كي أهيئ نفسي لسماع التفاصيل التي سيبوح بها منار، وسأكون يقظاً وثابتاً كالجاسوس لمعرفة أيه كلمة تدور حول بديع الزاهر وحول الأثر الذي تركه في منار دون أن أُشعِر منار بتعطشي لذلك.

عدتُ ووضعتُ إبريق الشاي بيننا، وبدأتُ بصب الشاي، والبخار قد تحرر من فم الإبريق بشكل يشبه التفاصيل التي سيحررها منار من فمه بعد لحظات.

راح منار يتابع حديثه عن بديع الزاهر بنبرة فيها الكثير من الإعجاب

بهذا الرجل، ووصف منار كلمات بديع الزاهر بالكلمات التي لها قدرة على جذب اللذين حوله بطريقة لم يستطع منار أن يجد وصفاً لهذه الطريقة، فاضطررتُ لوصف ذلك بدلاً عنه، ورغم أن وصفي لم يكن دقيقا إلا أن منار وافق على هذا الوصف وفي وجهه الكثير من الانبهار بهذا الرجل.

أخذ منار رشفة من الشاي ثم تابع يذكر لي بعض المعلومات التي عرفها عن هذا الرجل من خلال أبيه الذي حدّث أفراد أسرته عنه أثناء عودتهم إلى بيتهم عند الفجر، و لم يكن منار يدري بأني قادر على تقديم أدق معلومات عن هذا الرجل، لكنني دوماً أتوق لمعرفة المزيد عن هذا الرجل، ولا سيما معرفة شيء ما قد يكون مفتاحاً لهذا الباب البشري الذي قال عن نفسه إنه سارق دهن العقول.

ذكر منار لي زواج بديع الزاهر من كنانة التي التقاها في العاصمة، وعن انتحارها، وعن مغادرته إلى العاصمة وعودته قبيل موت رشاد بأيّام، وعن صلة القرابة التي تربطه بعائلة رشاد، وعن الشباب الذي يبدو على ملامحه رغم تجاوزه الخمسين، وفاجأني منار حين سألني قائلاً:

– هل تعرفه؟

شعرتُ أني بين مجموعة من علماء النفس يجرون عليّ اختباراً نفسياً ما حين قلتُ:

– لا، لا أعرفه.

نظر إليّ منار نظرة شعرتُ بغرابتها ثم قال:

– إن مطعم "مجرى النهر" تم بناؤه في مكان بيته بعد أن باعه قبيل ذهابه للعاصمة.

قلتُ له:

– يا للمصادفة الجميلة.

وعلى عجل قال منار:

– حقاً مصادفة جميلة، لكننا لم تناول الطعام فيه كما يجب.

ولكي لا أشعره بشيء قلتُ له:

– سنتناول الطعام فيه ذات مرة، إنه مكان جميل.

قال:

– أرجو ذلك.

وحدثني منار عن الخلاف الذي حدث بين أبيه وأخته نينار أثناء خروجهم من بيت أهل رشاد، وذلك أن نينار طلبتْ من أبيها أن يدعو بديع الزاهر لتناول طعام العشاء عندهم وذلك باعتباره ضيفاً على المدينة، إلا أن والد منار رفض ذلك بشدة، وعبّر منار عن استيائه من رفض أبيه لطلب نينار الذي كان بمثابة رغبة له ولأمه التي تعاطفتْ مع رغبة نينار في ذلك.

وفجأة باغتني منار قائلاً:

– كن كالنعسان، وإياك أن تنام.

قلتُ لمنار:

– ما هذا؟ لم أفهم.

ابتسم منار قائلاً:

– وأنا كذلك لم أفهم معنى هذا.

نظرتُ في وجه منار نظرة انتظرتُ فيها أن يوضح لي ما قاله، مدّ منار يده على علبة سجائري وأخرج سيجارة وقام بوضعها بفمي وأشعلها لي ثم قال:

– كن كالنعسان وإياك أن تنام.

قلتُ له وأنا أنفث الدخان:

– وماذا بعد؟

قال منار:

– فقط هكذا، كُن كالنعسان وإياك أن تنام.

قلتُ مرةً أخرى:

– لم أفهم.

قال منار وهو يبتسم:

– إنّ هذه الكلمات للسيد بديع الزاهر، لقد قالها دون أن نفهم معنى لها.

قلتُ له:

– وماذا أيضاً؟

حدّق منار يتذكر شيئاً من أقوال بديع الزاهر ثم قال:

– حين تغسل يديك بالصابونة، لا تنسَ أن تغسل الصابونة حين تنتهي.

دام صمتٌ بيني وبين منار ثم تنهدّ وقال:

– لقد استطاع هذا الرجل أن يحوّل السهرة من سهرة عزاء إلى سهرة جميلة حين تحدث عن الموت بطريقة تشبه التحدث عن نزهة فيها الكثير من الطمأنينة.

7

أمضيت الليل وحيداً أفكر ببديع الزاهر وببعض الذين بدأتُ أشك بأنهم أتباع له دون أن يدروا، وبين الحين والآخر كنتُ أقطع هذا التفكير بتأمل سلك كهربائي ممدد عند التقاء سقف غرفتي والجدار الذي عليه المصباح، بدا لي هذا السلك المتسخ كأنه يغلف شرياناً من شرايين روح رشاد الذي ابتلعه التيار الكهربائي كما يبتلع الضوء ذرات العتمة بسرعة مذهلة، وكنتُ أسمع أنيناً مباغتاً من بين قصبات صدري المتعب من أثر السجائر، وكان هذا الأنين يجعلني أظن أنه صوت قادم من السلك الكهربائي هذا، كان خوفاً منظماً بكل دقة، وكان رأسي مليئاً بالفوضى والنعاس، ولم تستطع متانة الجدران وقفل الباب منع الخوف الذي اعتراني.

إنّ الفشل السريّ أكثر قسوةً من ذلك الفشل العلنيّ الذي يدركه الناس فينا، وإنّ المرء حين يعجَز عن إعلان فشله السريّ يكون قد فقد ثقته باللغة، فيبقى رهينَ نموّ هذا الفشل في ذاكرته إلى أن تتهيأ له ذات الظروف وذات العناصر والتفاصيل لإثبات نجاحه من جديد، ولا يمكن أن تتهيأ كل هذه الأشياء في آن معاً من جديد لتجاوز ذلك الفشل الدقيق.

لذلك أشعر أنه يتوجب على المرء أن يدرك أن الحياة تدفعنا نحو الهزيمة، وهذه مهمتها نحونا، وعلينا دوماً ألا نحقد عليها وأن نحترم فيها الوفاء والإخلاص في مهمتها هذه، وأن نتعلم منها الإخلاص لذاتنا وذوات غيرنا في البقاء إلى نموت بنجاح كبير يمحو كل تفاصيل ذلك الفشل الدقيق الذي مرّ بنا ومررنا به.

جاء الصباح بطيئاً ومُتْعَبَاً، لكنه استطاع أن يمسح على جبيني بنوره المتفتح عبر زجاج باب غرفتي كتفتُّح زهرات بيضاء، وجعلني هذا المشهد أشعر أن الزجاج خير وسيط بين الداخل والخارج وذلك بسبب قدرته على نقل الأشياء إلينا على مهل تاركاً لنا بعض الخيال.

قمتُ وشربتُ كوب ماء، ثم توجهتُ نحو باب البيت لألقي نظرة نحو امتداد الشارعين المؤديين إلى بيتي، ولا أعرف من أين أتتني رغبة النظر نحو شارع المقبرة.

كان الشارع نائماً نومة الأموات الذين يرقدون بمحاذاته، وكانتْ الشاهدات تبدو كحجارة مرمية فوق تلة واحدة متماسكة لتشكل قبراً واحداً يضم كل هؤلاء الموتى بين شاهدتين عملاقتين لا أثر لهما.

تثاءبتُ تثاؤباً أشعرني بشيءٍ من الوجود الذي نبض بين فكي وداخل صدري أثناء أخذه كمية كبيرة من هواء الصباح النقي، واغرورقت عيناي حين تثاءبتُ مرةً أخرى، وكادتْ أن تسيل دمعة لولا قيامي بمسح عيني بباطن كفي، جعلني هذا الفعل أعيد النظر مرةً أخرى نحو شارع المقبرة، وللوهلة الأولى بدا الأمر وكأني أنظر من خلف زجاج عليه بعض الماء.

تحركتُ عدة خطوات بطيئة نحو زاوية البيت لألقي نظرة في امتداد الشارع الفرعي، سيارة أجرة توقفتْ في منتصف الشارع عند باب أحد البيوت، راح السائق والرجل يُخْرِجان بعض الأشياء من صندوق السيارة، ودون أن أُجهد نفسي كنتُ مدركاً أنه رجل عائد من السفر، بقيتْ المرأة واقفة أمام البيت الذي توقفتْ السيارة أمامه تنتظرُ ذهاب السيارة كي يتفرغ الرجل العائد من سفره هذا لمصافحتها بارتياح، بينما راح الصغار يعبثون بتلك الأشياء وهم يتقافزون حولها بنشاط، انطلقتْ السيارة نحوي، وحين وصل عند زاوية بيتي سمحتْ لي المسافة القريبة بأن أشاهد السائق وهو يقضم تفاحةً على ما يبدو أن الرجل العائد من سفره هو مَن قام بتقديمها لهذا السائق، انعطف يميناً من أمام بيتي ومضى في شارع المقبرة نحو مركز المدينة، في هذه اللحظات فاتني أن أنظر نحو الرجل العائد من سفره وهو يصافح المرأة التي كانت واقفة أمام الباب تنتظر مغادرة السيارة، وتساءلتُ في نفسي:

– أيهما أكثر سعادة، السائق الذي مر يقضم التفاحة، أم الرجل الذي قدم التفاحة للسائق؟

استدرتُ نحو باب بيتي كي أقوم بتحضير فنجان قهوة وتدخين السجائر، وما أن تحركتُ خطوتين حتى رأيتُ رجلاً قادماً من شارع المقبرة نحوي، كانتْ خطواته بطيئة وثيابه رثة ومتسخة بعض الشيء، توقف على مسافة قريبة مني وراح ينظر نحو البيوت المطلة على المقبرة تارةً ونحو البيوت التي في الشارع الفرعي تارةً أخرى، تقدم نحوي وألقى التحية عليّ وأتبعها بنظرة بدا عليها سؤال ما، قمتُ برد التحية عليه بشيء من الحذر، وسألني قائلاً:

– هل تعرف أحداً يود بيع بيته في أحد هذين الشارعين؟

قلتُ له:

– لا.

لقد أجبتُه دون أن أفكر بأي شيء سوى بأنه ينبغي عليّ أن أُجيبه بما أجبتُه، وسأظل أجيبه بهذه الإجابة حتى ولو طرح عليّ مئة سؤال عن كل ما له علاقة بتساؤله هذا.

قال لي وهو ينظر نحو باب بيتي المفتوح:

– حسناً، هل هناك من يؤجر بيته؟

قلتُ له:

– لا.

ثم نظر نحو أرض صغيرة واقعة بين بيتين من بيوت الشارع الفرعي،

وأشار بيده نحوها وهو يقول:

– وهذه المساحة الصغيرة من الأرض...

ودون أن يُكمل سؤاله قلتُ له:

– لا.

نظر إليّ نظرة ثابتة وكأنه يريد أن يقول لي إنه لم يُكمل سؤاله بعدُ، ونظرته هذه أرغمتني على أن أقول له:

– لا أعتقد أنها للبيع.

طلب مني ألا أشفق عليه بسبب مظهره هذا، وأحاطني علماً بأنه يملك بيتاً أنيقاً وواسعاً، وأن البيت الذي يريد تأمينه ليس من أجله، بل من أجل صديق له تركه في المقبرة يواصل بكاءه على فقيد له.

نظرتُ في وجهه الذي يقترب من الخمسين وقلتُ له بحزم:

– لا.

نظر نحو المقبرة قائلاً:

– يبدو أن حظ صديقي حظٌ عاثر، هو مُصِرٌّ على العيش بالقرب من قبر فقيده.

أخرج من جيبه علبة السجائر على مهل ووضع سيجارة بفمه وراح يمسح جيوبه من الخارج بيده بحثاً عن علبة ثقاب، وكان ينظر في وجهي لأعطيه علبة ثقاب، بادلتُه ذات النظرة فشعرتُ أنه أدرك أني لا أحمل علبة

ثقاب، هز رأسه مبتسماً حين أخرج يده من جيبه وعلبة الثقاب بيده، أشعل سيجارته ثم غادر نحو المقبرة.

لا أعتقد أنّ الإنسان يخاف من الموت بقدر ما يخاف من الأسباب التي قد توصله إلى الموت البطيء، وهذه الأسباب غالباً ما تكون ناتجةً عن الأفكار والملاحظات والخيالات المرتبطة بشرارة صغيرة أو كبيرة قد حدَثَتْ في حقيقة الأمر، وبهذا الشكل يسعى الإنسان إلى إقامة علاقة سلام مع أحدٍ ما كي يتخلص من مخاوفه هذه، وهكذا يكون هذا الآخر هو عبارة عن وسيلة وليس غاية، فالغاية التي يتبناها الإنسان طوال حياته هي تلك الغاية التي تتجاوز الصفة البشرية، وهذا ما يؤكد حقيقة البعض الذين يظنون أنفسهم آلهة رغم إلحادهم وعدم إيمانهم بفكرة وجود إله ما.

دخلتُ البيت واستلقيتُ على فراشي وبقيتُ أتقلَّب وأدخن السجائر، ومع كل سيجارة أدخنها كنتُ أظن أنها ستكون الأخيرة وأنام بعدها، إلّا أن ظني هذا لم يكن في محله، قمتُ إلى المطبخ وتناولتُ كمية كبيرة من الطعام.

استيقظتُ في المساء وأنا طافح بالخمول وخدر بالرأس، قمتُ نحو المطبخ لتحضير فنجان قهوة، وفنجان القهوة يعطيني شعوراً بالوجود وذلك لأن البن والماء سيمتزجان بيدي لا بيد سواي، راح الماء يغلي وحين مددتُ يدي لآخذ ملعقة صغيرة انسكب الإناء الصغير الخاص بالقهوة على الأرض، فقمتُ بتحضير كوب من الشاي بدلاً من القهوة، تناولتُ مع كوب الشاي قطعتي جبنة وقطعة خبز صغيرة ثم ارتديتُ ثيابي

وخرجتُ من البيت عبر الشارع الفرعي، وحين وصلتُ أمام البيت الذي وصل صاحبه صبيحة هذا اليوم من السفر شاهدتُ أحد أولاده على الشرفة يقضم تفاحة بيده.

بقيتُ أسير إلى أن اقتربتُ من الشارع الذي يفضي إلى بيت رضوان اليوسف الذي لم يتسنَّ الوقت لي لحضور لعبة الشطرنج التي دعاني لها، وتحركتْ رغبة في داخلي لمعرفة نتيجة اللعبة التي جمعتْه مع منافس له.

فتح رضوان الباب لي وكان وجهه بارداً بعض الشيء، تفاجأتُ بوجود رجل في الستين من عمره، ألقيتُ التحية عليه وجلستُ، بينما جلس رضوان بجانبي، وبشيء من الخمول بسط رضوان يده نحو الرجل قائلاً:

– السيد مراد، أستاذ في الرياضيات، متقاعد.

ودون أن يفسح رضوان المجال لي لأقول كلمة لطف للرجل قام ببسط يده نحوي قائلاً:

– جابر الزايم، أحد أصدقائي.

وما أن أنهى رضوان تقديمي للسيد مراد حتى راح السيد مراد يتابع حديثه مع رضوان عن زلزال ضرب أحد البلدان، وراح يسهب في الضرر الذي تعرض له هذا البلد من الزلزال، والفارق بين هذا الزلزال وبين فيضانات حدثتْ في بلد آخر من حيث الضرر، وكان يكرر كلمة "أعتقد" بشكل واضح، وبتباطؤ ببعض العبارات دون غيرها.

لقد استطاع رضوان أن يحدثني بكلمات قليلة كان يلقيها على مسمعي وأنا أصغي لحديث السيد مراد، و لم يَظهر أي استياء على وجه السيد مراد من طريقة حديث رضوان معي، وكأن السيد مراد كان مكتفياً بنظري إليه وهو يتحدث، وكانتْ كلمات رضوان تدور حول خسارته بلعبة الشطرنج التي دارتْ بينه وبين منافسه بالأمس وكان استياء رضوان بادياً بنبرته، و لم أستطع أن أواسيه بسبب انشغالي بالإصغاء لحديث السيد مراد الذي لم يرفع عينه عني وهو يتحدث، وتمنيت لو أنه يوجه نظره نحو رضوان كي يفسح المجال لكرتَي عيني في أخذ قسطٍ من الراحة، وتمنيتُ لو أنه ينهي حديثه بسرعة كي يفسح المجال لرضوان في تقديم الحجج والمبررات لخسارته بشكل مريح.

ظل السيد مراد يتابع حديثه عن الزلازل والبراكين والفيضانات والجثث المفقودة والبيوت المهدمة والعاهات الناجمة عن كل هذه الكوارث، بينما ظل رضوان متوتراً يفرك يديه ببعضهما وهو يقذف بعض الكلمات كلمة كلمة حول خسارته بالشطرنج، وكأن السيد مراد ليس موجوداً.

انتابني شعورٌ بالأسى لعدم قدرتي على التعاطف مع كلّ الذين تحدث عنهم السيد مراد، وشعور بالضيق لعدم قدرتي على محو الاستياء الذي يشعر به رضوان، وظلتْ عيناي نحو السيد مراد وهو يتحدث عن مخاوفه من زلزالٍ ما قد يودي بحياته، وعن رغبته بالذهاب إلى القرية والاستقرار بها، بينما ظل سمعي موزعاً بين السيد مراد ورضوان، دام صمت قصير، لم أعرف إن كان السيد مراد قد أنهى حديثه أم أن صمته هذا ناتج عن

كلمات تستوجب أن يصمت عندها لِمَا تحمله من معنى، في هذا الصمت القصير همس رضوان:

– أنت السبب في خسارتي يا جابر.

وما أن نظرتُ إليه قام السيد مراد من مكانه ثم وقف رضوان قائلاً:

– لم يحِن موعد ذهابك بعدُ.

نظر السيد مراد إلى ساعته قائلاً:

– أريد أن أمشي قليلاً قبل أن أذهب للبيت.

خرج السيد مراد وبقينا أنا ورضوان اليوسف نتنظر أحداً منا أن يدير مفتاح حديث ما، لم أجرؤ على ذلك بسبب التهمة التي وجهها لي حول خسارته.

لم أستطع أن أعرف حقيقة أمر خسارته، لكنّ نبرته كانتْ كافية لإدانتي، و لم أفكر بالدفاع عن نفسي بقدر ما فكرتُ بالطريقة التي أستطيع فيها أن أخفف عنه، حدّق نحو الأسفل بعينين مضطربتين، واستطعتُ أن ألاحظ هذا الاضطراب من خلال تقلّص عضلات وجهه وضغط أسنانه على لحم باطن خده، وما أن أردتُ فتح الحديث مع رضوان حتى تذكرتُ بديع الزاهر حين قال لي:

– كدتُ أن أتوقف عن ملاحقتك في اللحظة الأخيرة.

فالتزمتُ الصمت، وبقيتُ أركض في هذا الصمت وكأني أركض أمام

بديع الزاهر رافضاً التوقف وقد لاحظتُ قسوة صمتي أمام رضوان، وهو يرمُقني بعينيه راجياً مني التحدث، وشعرتُ أنه أوشك أن يسقط أمامي كما سقطتُ بيدَي بديع الزاهر آنذاك.

وضع رضوان صِدغَيه بين باطن يديه ثم قال:

– لقد خاب ظني بك، عدم حضورك كان سبب خسارتي.

حدق نحو الأسفل وحاله يدل على أنه لم يُنه كلماته بعد، وفجأة صرخ بصوت عالٍ على أولاده الذين أصدروا صوتاً خفيفاً لم يكن لدرجة الإزعاج، وأشعرني أن هذه الصرخة في وجهي وليستْ في وجه أولاده.

توقف وراح يمشي أمامي جيئة وذهاباً وهو يتحدث عن الضيق الذي يشعر به بسبب خسارته بالشطرنج، ووضح لي أن المسألة أكبر مما أعتقد، وأن عدم حضوري أثر عليه أثراً بليغاً وكان سببَ خسارته، ولقد وجه إصبعه نحوي وهو يتحدث أكثر من مرة، وظلّ يتحدث بلهجة مؤثرة إلى أن وصل الأمر لذروة الشعور بأنه يقوم بمحاكمتي على جريمة حقيقية ارتكبتُها.

جلس بجانبي والتزم الصمت، و لم أعد أعرف ماذا يتوجب علي أن أفعل، لكني كنتُ أدرك أنه ينتظر مني أن أقول شيئا أبرّر به عدم حضوري مساء الأمس بعد أن دعاني لذلك حين جاءني متوتراً إلى باب بيتي.

دخلتْ زوجته وهي تحمل أكواب العصير، ألقتْ التحية علي وكأن وجهها يشير إلى أنها متوترة بسبب الحالة التي يمر بها زوجها، جلستْ

بعد أن قدمتْ العصير لنا، ثم حركتْ رأسها لي حركة تشير إلى أنه يتوجب علي أن أتحدث إلى زوجها كي أخفف عنه، وظلتْ تفرُك بيديها منتظرة أن أفعل شيئا لزوجها.

لا أعتقد أن المسألة مسألة خسارة بالشطرنج، إن الأمر أعمق من ذلك، وإن الذي في أعماق رضوان اليوسف يصعب علي وعلى زوجته فهمه، ولكني في هذه اللحظات تذكرت كلماتي له حين قلتُ له:

– أنا آسف لأني خسرتُ أمامك.

ومازلتُ أشعر أن المرء حين يخسر يحظى بنصيب كبير من السكينة والطمأنينة، وهذا التوتر والقلق الذي يعج داخل رضوان يؤكد لي أن المسألة ليست مسألة خسارة بالشطرنج فقط.

شربتُ من كأس العصير وحدقتُ بعينيّ من فوق الكأس تحديقاً حاداً، ثم قلتُ:

– كن كالنعسان وإياك أن تنام.

نظر رضوان إلي نظرة حادة، وراحتْ زوجته تنظر إليه نظرة تنتظر فيها أن يقول رضوان شيئا بعد نظرته الحادة هذه، أسند رضوان خده على باطن كفه ثم قال:

– أعد ما قلتَ.

ودون أن أتنبّأ بالذي سيحدث قلتُ له:

– كن كالنعسان وإياك أن تنام.

ابتسم رضوان اليوسف دون أن أعرف حقيقة هذه الابتسامة، ولحظة قولي لهذه الكلمات التي قال منار إنها كلمات لبديع الزاهر لم أكن أعرف ما الذي دفعني دفعاً كاملاً لقول هذا، وبذات الوقت كنت بكامل إدراكي حين أردت قول هذه الكلمات من باب الشعور بأنها ستحدث انتباهاً ما لرضوان الذي اعتقدتُ أن الكلام معه سيكون دون جدوى، ولا أعرف حقيقة الدماغ حقيقة ثابتة كي أستطيع الوصول إلى الذرة التي دفعتني لترديد كلمات خرجتْ من ذاك الذي يُدعَى بديع الزاهر.

سألني رضوان قائلاً:

– من قائل هذه الحكمة؟

لم يكن الوقت يسمح لي كي أرتب رداً بعيداً كل البعد عني، قلتُ له:

– سمعتُها من أحد أصدقائي، يبدو أنه قرأها من كتاب ما.

أعاد رضوان رأسه نحو الخلف وأسنده على باطن يديه المتشابكتين وقال:

– كن كالنعسان، وإياك أن تنام.

بقي رضوان صامتاً ينظر في نقطة ثابتة و لم أجرؤ أن أسأله عن معنى تلك الكلمات التي قال عنها إنها حكمة.

أمسكتُ كأس العصير وشربتُ ما تبقى منه، وحين أعدتُه على الطاولة

الصغيرة التي أمامي تقصدتُ أن أصدر صوتاً ناتجاً عن ارتطام الكأس بزجاج الطاولة، ثم وقفتُ قائلاً:

– أرجو المعذرة، حان وقت خروجي.

لم أكن أدري أن وقوفي بهذه الطريقة سوف يزيدني ارتباكاً من نظرات رضوان وزوجته التي وزعت نظراتها بيني وبين زوجها، وقف رضوان ثم قال:

– أريد أن أشرح لك أسباب خسارتي.

جلسنا وبيننا رقعة الشطرنج، أخذ دور المُنافس الذي فاز عليه، وبذات الوقت أخذ دوره، وراح ينقل أحجار الشطرنج نقلة من هنا ونقلة من هناك، وأدهشني حفظه لمجريات اللعبة التي دارت بينه وبين مُنافسه، وظل ينقل الأحجار إلى أن نظر في وجهي قائلاً:

– انظر الآن جيداً، ولاحظ هذه النقلة، نظرتُ عميقاً في رقعة الشطرنج، ودون أن أفهم قصده حول مايريد، شعرت بندم شديد بسبب عدم قدومي لحضور اللعبة مع منافسه كما طلب مني.

وظل رضوان يتحدث بكلمات هادئة حول استيائه من عدم حضوري المنافسة التي دعاني إليها، وزوجته ظلتْ تهز رأسها مؤيدة ما يقول، إلى أن وقف قائلاً:

– وجودك كان مُهِمّاً حينها لأنك مؤمن بي، لكنك لم تأت رغم دعوتي لك.

وعاد وجلس وهو يتنفس بصعوبه، وبسرعة قامت زوجته وأحضرت كأس ماء، تناول الكأس من يدها وراح يشربه وعيناه تلقيان في عينيّ الكثير من العتب والاستياء.

خرجت من بيت رضوان اليوسف وأنا مثقل بالضيق، وظلت كلمات رضوان ترن بداخلي بذات النبرة:

– وجودك كان مهماً حينها لأنك مؤمن بي، لكنك لم تأت رغم دعوتي لك.

وأنا أسير نحو بيتي كانت شراسة الليل تشير الى أن وراء هذا الصمت المطبق يختبئ شخص ما سيعطي أشارة منه لعشرات الأشخاص الذين يقفون وراء الأبواب الممتدة في الطرقات كي يقوموا بطرق حديد هذه الأبواب من الداخل.

كنت أرغب بالوصول الى البيت والنوم والاستيقاظ لأجد الصباح يملأ عيني من جديد، أردت حدوث هذه الأشياء دفعة واحدة دون أن أفكر بالزمن الذي تحتاجه لتحدث، وصلت باب البيت ورحت أفتح الباب دون أن ألقي نظرة نحو المقبرة التي كنت على يقين تام أن شاهداتها مازالت في مكانها.

8

تسقط الصابونة من بين يديّ وأنا أفكر في كلمات بديع الزاهر تلك التي قالها في السهرة التي جمعتْ أسرة منار وأسرة رشاد.

جاء المساء وكان شعوري يزداد قلقاً ناجماً عن شدة التفكير ببطء الزمن، واستغرب قدرة الزمن في محافظته على استقامته دون أن يميل ليشكل دائرة ذات نقاط متشابهة في منح شعور ثابتٍ.

هيأتُ نفسي للسفر إلى العاصمة، وخرجتُ وكانت المدينة جاثمة على نفسها كما ثياب الشتاء وهي تنتظر مغادر الصيف كي تأخذ دورها بالخروج من خزاناتها.

لامعنى للمدينة حين يكون المرء فيها، فالرحيل عنها يكسبها أشياء من السلام أثناء تذكرنا لها ونحن بعيدون عنها، وكثيرة هي المدن التي تَمَلُّ أبناءها الذين يُصرُّون على البقاء فيها حتى موتهم، وبذلك تصبح المقابر في مدينة ما حكراً على أصحاب هذه المدينة دون غيرهم.

كان الناس في محطة القطار يمشون ويتحركون بشكل متشابه لحد كبير، وبكل تأكيد كانوا يحملون بطاقاتهم الشخصية، وهذه البطاقات كل ما عليها هو مجرد أسماء وتواريخ كتلك الشاهدات، وإن جميع هذه البطاقات متشابهة ولا يوجد عليها أية إشارة تدل على فعل ما قام به صاحبها، كما الشاهدات تماماً، فقط أسماء وتواريخ.

وقفتُ أنظر في هذه الجموع فشعرتُ أني الوحيد الذي يفكر بوجوده وأن هؤلاء الناس مجرد حركة في اختبار عيني، لكني بذات الوقت كنتُ مدركاً أن كل فرد من هؤلاء الناس يشعر بذات الشعور الذي أشعر به، وهكذا يصبح الشعور بالوجود موزعاً في ذات كل فرد منا دون أن يعلم هذا الفرد حقيقة هذا التوزيع.

كانت قاعة الانتظار بكراسيها المرتبة والثابتة بالأرض تشبه صالة مسرح لممثلين لم تُوزَّع عليهم الأدوار بعد، وكل واحد منهم راح يظن في نفسه أن دوره سيكون كما يشتهي.

جلستُ على كرسي ونظرتُ في ساعة الجدار الكبيرة منتظراً لحظة الإقلاع، ونظرتُ في وجه موظف في المحطة وهو يجلس على كرسي خلف زجاج شفاف بفتحتين دائريتين، واحدة بمستوى وجه الموظف

تتيح له التحدث مع المسافر، والأخرى في الأسفل تتيح مرور الأشياء.

وتساءلتُ في نفسي:

– ما الجدوى من الفتحة العليا طالما أن الموظف والمسافر يعرفان ما يترتب عليهما؟

نظرتُ جانباً فوقعت عيناي على سيدة أنيقة يظهر عليها الثراء، كانت تجلس مرتاحة تنتظر موعد إقلاع القطار، توقف متسول عجوز أمامها، ودون أن يتفوه المتسول بأية كلمة قامت السيدة بإعطائه ورقة نقدية دون أن تتفوه هي الأخرى بأية كلمة، أخذ المتسول الورقة النقدية بهدوء ووجه ثابت وغادر المحطة وظلت السيدة على ما عليها وكأن شيئاً لم يكن.

أذكر ذات مرة أنّ أحد زملائي في المدرسة سرد لنا حكاية تدور حول لص أراد سرقة بيت، وحين دخل هذا اللص البيت ليلاً، تفاجأ أن صاحب هذا البيت هو أحد الذين تعرف عليهم في السجن، ولقد عرف هذا الأمر من خلال صورة صاحب البيت المعلقة على الجدار، ضحك اللص وقرر أخذ صورة صاحب البيت ليحتفظ بها، وبعد مرور شهور قام صاحب البيت بزيارة اللص وتفاجأ بوجود صورته في بيت صديقه اللص وقال له:

– ما هذا؟ إنها صورتي، لص يسرق لصاً؟

قال اللص:

– كنتُ سأسرق بيتك لولا صورتك هذه، ولكن لا تنسَ أنك وعدتني

بصورة لك حين كنا في السجن.

ضحك جميع زملائي ما عدا الأستاذ الذي بقي ثابت الملامح دون أن يضحك وقال:

– إنها حكاية جميلة ومضحكة أيضاً.

قال الذي سرد الحكاية:

– لكنك لم تضحك يا أستاذ.

أجاب الأستاذ:

– أنا لا أؤمن بتعبير الوجوه إنها مُرْهِقَة، ويجب توحيد كل الوجوه كي نتخلص من سوء الفهم.

أعلن صوت الموظفة عبر مكبر الصوت عن ضرورة الاستعداد والتهيؤ للإقلاع، قمنا صوب الممر الذي يفضي إلى القطار وسكته التي ستسير عليها أسرار المسافرين، وكان المودعون يتبادلون الكلمات على عجل مع المسافرين الذين بذلوا جهداً في حمل أشيائهم واستغربتُ الضجيج الذي حدث فجأة في المكان، وكأن الوداع لا يكون إلا في المحطات والمطارات ولا يكتمل إلى في اللحظات الأخيرة.

جلستُ من جانب نافذة القطار وجلس بجانبي رجل في السبعين من عمره، حليق الذقن، بارزة عظامُ وجهه الطويل، طويل القامة، وهزيل البنية، يلبس قميصاً متداخلة فيه عدة ألوان وبنطالاً ناصع البياض وبعد إقلاع القطار بقليل قام بإخراج دفتراً سميكاً وقلماً أنيقاً من حقيبته الجلدية

ذات اللون البني، و لم تكن الإضاءة في القطار تساعد على الكتابة بشكل كافي، إلا أنه بدأ يكتب بخط كبير، وكانت كلماته تبدو مائلة وغير متناسقة فيما بينها، و لم تكن الورقة الواحدة تأخذ منه وقتاً طويلاً في ملئها.

مرت ساعة وما زال هذا العجوز يكتب، ولكي لا يظن هذا العجوز أني أتقصد استراق النظر إلى ما يكتب أسندتُ رأسي إلى الخلف ورحتُ أحدق في سقف القطار، و لم أجد فارقاً كبيراً بين سقف القطار والسماء، وبقيتُ على هذا الحال إلى أن شعرتُ بأن النعاس قد سرى في رأسي كما يسري السر في صدر صاحبه.

استيقظتُ على صوت المسافرين وهم ينزلون، نظرتُ من نافذة القطار فأدركتُ أن الليل غادر وحل محل وجه الصباح، وقفتُ أنتظر قيام العجوز كي يفسح المجال لي بالخروج ولكن استمراره في الكتابة منعه من ملاحظة استعدادي للنزول، ودون أن ينظر حوله قام بوضع الدفتر والقلم في حقيبته التي شاهدتُ داخلها مليئاً بالدفاتر ثم قام وتوجه نحو الباب مترنحاً من شدة التعب، نزلتُ من القطار وتوجهتُ نحو باب المحطة وأخذتُ سيارة أُجرة وطلبتُ من السائق أن يوصلني إلى أقرب مقهى.

كان الهواء الذي غسل لي وجهي من خلال نافذة السيارة قد حثني على بدء التفكير فيما تريده نينار، لكن الأمر كان صعباً للغاية، ومن جهة أخرى لم أجد أي دافع يبرر حاجة نينار لي، إلّا إذا كانت تحتاج لأن أتبرع لها بكليتي، هذا أفضل عمل أستطيع القيام به، توقفتُ عن التفكير وبقيتُ أنظر من نافذة السيارة دون أن أفكر بأي شيء، واكتفيتُ بقراءة اسماء المحلات التي كانت السيارة تمر من أمامها بسرعة ليستْ كتلك السرعة

التي سارت عليها سيارة صاحب المَطرة حين ذهابنا إلى القرية.

دخلتُ المقهى وجلستُ أحتسي القهوة مع نصف سيجارة كنتُ قد أشعلتُها أثناء دخولي، و لم تكن الوجوه كتلك الوجوه التي صادفتني عند بائع الحليب في المدينة، كلُّ الذين في المقهى كانوا يتحدثون بطريقة تشير إلى أن شيئاً ما سيحدث بعد قليل.

رحتُ أقلب صحيفة يومية كانت على طاولتي، وحين وقعت عيناي على الصفحة المخصصة للحظ والأبراج قرأتُ كل الأبراج و لم أجد برجاً يشير إلى بديع الزاهر.

إن الفرق بين المدينة التي أعيشُ فيها والعاصمة التي أنا فيها الآن هو وجودي، وإن حياتي ليست ملكاً لي، وليس بمقدوري أن أحافظ عليها أمام ما قد يحدث لي على يد أحد ما لا يملك حياته هو أيضاً، وأن أبقى حذراً وخائفاً من موت يتم ببطء مثل الذي حدث لي داخل الصندوق هذا يعني أني أموت ببطء أكثر قسوة من الموت الاعتيادي.

إن مسألة الخلود مسالة مستحيلة بالتأكيد، ولكن بالمقابل لماذا لا تكون مسألة أن يموت المرء بالتعذيب مسألة مستحيلة أيضاً؟

وهذا ليس قمة العدل بل أولى خطوات هدم الظلم البشري، وبعدها يحق للمرء أن يفكر بالخلود إلى أن يموت مطمئناً.

تمنيتُ لو أن هذا المقهى يقدّم الحليب للزبائن، فلقد شعرتُ بحاجة ماسة لشرب كوبَين منه، وخُيِّل لي لو أن بديع الزاهر كان بمكاني لقام بتهديد القائمين على هذا المقهى بالسلاح، وجعلهم يجثون هم والزبائن

على ركبهم إلى أن يحضِروا له قطيعاً من الغنم والماعز ليحلبوه ويقدموا له حليباً طازجاً.

خرجتُ من المقهى وأخذتُ سيارة أجرة، انطلق السائق بي نحو عنوان نينار المدوّن على الورقة، توقفت السيارة في شارع حيثُ البناء الذي فيه نينار و لم يعد يفصلني الكثير عن معرفة ما تريده مني نينار، طرقتُ الباب ففتحَت الباب لي شابة بعمر نينار ترتدي قميص نوم مكشوف الكتفَين انسكبَ قماشه الأبيض على جسدها وتوقف عند ركبتيها، هزت لي رأسها عما أريد وفرشاة الأسنان في فمها، قلتُ لها:

– أنا جابر الزايم أريد رؤية نينار.

وبإشارة برأسها طلبت مني الدخول، جلستُ على أريكة أرجوانية اللون وكانت أمامي طاولة زجاجية ذات شكل دائري عليها بعض الكتب والأوراق، بينما هي توجهت نحو الحمام كي تنهي تنظيف أسنانها.

كان الهدوء يتيح لي أن أجول بعيني في كل تفاصيل المكان، لكن صوت طرقات على باب البيت جعلني التزم النظر في نقطة ثابتة، قامت الشابة بفتح الباب وفرشاة الأسنان لم تزل في فمها، دخلتْ امراة في الخامسة والأربعين من عمرها وجلستْ على كرسي قريب مني يسمح لي برؤية ملامح وجهها بشكل واضح، أخرجت الشابة فرشاة الأسنان من فمها وقالت:

– سأغسل وجهي وفمي ثم أعود، لحظات وأعود.

قالت المرأة:

– حسناً.

لقد بدا على وجه هذه المرأة قلق؛ وهي تمسح بإصبعها رأس أنفها بحدة، كانت نظراتها تمسح المكان بسرعة واضحة ولم تعر أية أهمية لوجودي، وذلك أنها لم تسمح لعينها أن تستقرا نحوي، وحتى السقف أخذ نصيبه من نظراتها السريعة هذه، وضعت ساقاً فوق الساق الأخرى وقالت للشابة بصوت عالٍ:

– أين القهوة أو أين النبيذ؟ أحتاج لعملٍ جراحي يُخلصني من دمي هذا.

قالتْ الشابة من الداخل:

– لحظات، فقط لحظات وآتي.

قالت المرأة بصوت منخفض لم يصل إلى الشابة:

– أخاف أن أموت قبل هذه اللحظات، أكره أن أموت وفي فمي سؤال.

جاءت الشابة وهي تمسح وجهها بمنشفة صغيرة وقالت للمرأة:

– سأقوم بتحضير القهوة.

قالت المراة:

– أسرعي قبل ان أنفجر.

ابتسمت الشابة للمرأة ومضت لتحضير القهوة، أمسكت المرأة كتاباً

من الكتب الموضوعة فوق الطاولة وراحت تتأمل شكله الخارجي، ثم وضعته وأمسكت كتاباً آخر وراحت تقلب أوراقه بيد واحدة، مدت يدها الأخرى وأخرجتْ صورة لا تتجاوز مساحتها مساحة كفها من بين صفحات الكتاب الذي كانت تقلب صفحاته دون اكتراث.

نظرت في الصورة ملياً وكان وجهها يثير الفضول في معرفة الذي في هذه الصورة، لقد تحول وجهها إلى وجه طفلة صغيرة تمعن النظر في دميتها بكل هدوء، أغمضت عينيها وقَبَّلتْ الصورة بشفتين مغلقتين، ومسحت خدها بوجه هذه الصورة، ثم أعادتها داخل هذا الكتاب بكل هدوء وسكون، و لم تكن مكترثة لوجودي طوال هذا الوقت.

دخلت الشابة وبيديها القهوة، جلست قرب المرأة وبدأت تسكب القهوة لنا، وما أن ارتشفت المرأة أول رشفة من القهوة حتى قالت للشابة:

– أين هو؟

أخذت الشابة رشفة قهوة ثم قالت:

– لقد خرجا معاً في الصباح الباكر.

أشعلت المرأة سيجارة وقد بان صعود الدم إلى وجهها بكثافة، وبدا الاضطراب في أصابع يدها وهي تمسك سيجارتها، وساد صمت حتى آخر رشفة من قهوتنا، أخذت المرأة نفَساً عميقاً من سيجارتها ونفثْته أمامها وهي تضغط على مؤخرة سيجارتها في باطن المنفضة بشدة، ثم انتصبت واقفة وقالت:

– فلتعلم نينار أنه لي أنا، ولو سقطت نجمتان من السماء لكانت واحدة على رأسي والثانية على رأسه.

توقفت الشابة وقالت:

– اهدئي قليلاً.

وقاطعتْها المرأة على عجل وراحت تدور حول الشابة وهي تقول بهدوء:

– لا يمكن أن أؤمن بأن حظ نينار أفضل من حظي، هي تزوجت زواجها الأول وأنا كذلك، لكن الفارق الوحيد هو أن زوجها مات، أما زوجي أنا فلم يمت، وليس من العدل أن أنتظر موته حتى أبدأ حياة جديدة كما تفعل نينار الآن، وهذا لا يعني أني لا أحب زوجي، لكني أريد مباغتة الزمن، فالحياة لا تُعَاش مرة واحدة.

كانت الكلمات تخرج من صدر هذه المرأة كما حبات الحنطة حين تُسحَق بين حجرَي رحى، وسط صوت خشن.

لم أعد بحاجة لفتح الكتاب لمعرفة صاحب الصورة، صرتُ على يقين أنه بديع الزاهر، وأن نينار ربما كانت تريد البوح لي بما أحدثه هذا الرجل من سحرٍ في رأسها كما حدث لأخيها منار، وكما حدث لكنانة التي قالت:

– أحبه حتى الصداع.

خرجت هذه المرأة دون أن تقوم بإخراج الصورة من الكتاب لتمزقها

كما تصورت أن تفعل أثناء حديثها عنه.

جلست الشابة وأشعلت سيجارة وراحت تحدثني عن هذه المرأة وجنونها برجل لم تذكر لي اسمه، وأنّ هذه المرأة متزوجة وعلى استعداد لترك زوجها من أجل الرجل الذي لم تجلس معه سوى جلستين في هذا البيت، تمددت الشابة على الأريكة، وأخذت نفساً عميقاً وراحت تقدم مبرراتٍ لهذه المرأة، وعذرَتْها بسبب قدرة الذي وقعت بحبه على السحر الذي يبعثه بمن يحيط به، وظلتْ تتحدث عنه بإعجاب واضح وبنبرة أشعرتني أنها هي أيضاً واقعة به.

سألتُها قائلاً:

هل ستتأخر نينار؟

قالت وبذات النبرة التي كانت تتحدث بها:

– إنها سعيدة بوقتها الآن، هذا ما أعرفه.

نهضتْ على عجل وكأنها تذكرت شيئاً مهماً وقالت:

– سأسمعك قصيدة من قصائده، عنوانها (مصيدة القاموس) قلتُ لها:

– حسناً.

وفي حيقيقة الأمر كنتُ أود الخروج على عجل قبل أن يَحْدُثَ ما جال في بالي حول دخول بديع الزاهر في لحظة ما، وبذات الوقت كنتُ أرغب بسماع شيء ما لهذا الرجل الذي ما توقف عن الدوران من حولي.

راحت الشابة تلقي عليّ كلمات قصيدة تتحدث عن رجل لا يتذكر

أسماء الأشياء والأشخاص والمدن وكل شيء، وكلما حاول تذكر اسم ما يبدأ بحك جسده بأظافره إلى أن يخرج الدم من سطح جلده، ثم ينام ليستيقظ فجأة على تجمع الذباب فوق جراحاته تلك.

كانت لكلمات القصيدة موسيقى هادئة يتخللها جرسٌ من حدة بعض أفعال الأمر التي تكررت كثيراً على لسان الرجل الذي دارت القصيدة حوله، وكانت كلمات القصيدة تتساقط من فم الشابة كما تتساقط قطرات الدواء في العين، وكانتْ كلما أنهتْ مقطعاً تغمض عينيها وتأخذ نفساً عميقاً يساعدها على القاء المقطع الذي يليه دون توقف.

قمت من مكاني واستأذنتُ هذه الشابة بالذهاب، وادعيتُ أني على موعد مع أحد أصدقائي ولا أريد التأخر عليه، وأني سأعود في المساء لرؤية نينار.

خرجتُ على عجل وكأني أخرج من بيت بديع الزاهر، وخشيتُ أن أصادفه ونينار أثناء خروجي وهما عائدان من وقتهما الذي كانا سعيدين فيه كما قالت الشابة، وقلت في نفسي:

– تضيق العاصمة حين يكون بديع الزاهر فيها.

جلستُ على مقعد خشبي في إحدى الحدائق ورحتُ أنظر في جذوع الأشجار وأنا أفكر في كِليتي التي مازالت في جوفي تنتظر جوف شخص آخر يحتاجها أكثر مني.

وتذكرتُ رضوان اليوسف الذي احتاج حضوري احتياجاً لا يقل أهمية عن احتياج أحد ما لكلية، وكم شعرتُ بالندم لعدم ذهابي إليه في تلك الليلة التي دعاني لأكون شاهداً على وجوده، فلم تكن المسألة بنظر رضوان مسألة خسارة بالشطرنج، بل كانت مسألة طرح معتقداته أمام مَن

يؤمن به، ورضوان لم يكن يلعب مع خصمه بروح عالية وذلك لأنه إذا فاز فلن يكون فوزه هذا أمام مَن يؤمن به، ورضوان كان قد وضعني في رتبة الذين آمنوا به كلاعب شطرنج وصاحب عقلٍ يعمل في البحث عن حلول ذات قيمة.

إن أمر رضوان يشبه أمري حين أتحاشى حرق النمل حول البوتوغاز، فلقد كنتُ أشعر بضرورة وجود أحد ما يراني وأنا أفعل هذا، وذلك لأشعر بالطمأنينة عمّا فعلت، وذلك من خلال مَن يراني، وإن كان الذي يراني هو من قد يشعر بالطمأنينة أكثر مني، كما حدث لي حين رأيت سائق السيارة وهو يأكل التفاحة التي قام ذاك العائد من السفر بتقديمها له.

وتساءلتُ في سري:

– هل بديع الزاهر هو أيضاً احتاجني في تلك الظهيرة كشاهدٍ على وجوده وعلى ما فعله بي؟

بعد أن أمضيت بعض الوقت في إحدى الحدائق أفكر بكل الذي حدث لي منذ وصولي العاصمة، وفكرتُ أيضاً في أمرٍ بائس، لكنه أمر جميل للغاية لو أنّ الناس أخذتْ به على محمل الجد والدقة، ويدور هذا الأمر حول شخص ما مُصابٍ بحالة لا تسمح له بالكلام ولا أنْ يبدي أيّة حركة تعبيرية لأي شخص ما إذا ما صادفه في الشارع أو في مكان ما، وكل ما يستطيع فعله في أحسن الأحوال هو أنْ يلقي التحية فقط، ولكي يعرف الناس حقيقة ما يمر به هذا الشخص المُصاب بهذه الحالة يجب على هذا الشخص أنْ يلفَّ معصمه بقطعة قماش صفراء اللون مُنقطة باللون الأسود، وبهذا يتمكن الناس من معرفة أنّ هذا الشخص يمر بهذه الحالة،

وبهذا يسير هذا الشخص أينما يشاء مطمئناً من أيّة حالة اصطدام كلامية مع الآخرين مهما كان مضمونها، وبهذا الأمر يُتاح للشخص الخروج بدلاً من أنْ يبقى رهين عزلته خوفاً من الاصطدام مع الآخرين وهو في وضع بائس لا يستطيع فيه أنْ يحتَمل المزيد من الفوضى الراكنة في داخله.

قمتُ من الحديقة وقادتني قدماي إلى فوق جسر حديث التشييد، وكان كل شيءٍ في رأسي خفيفاً يكاد يكون دون معنى، وشعرتُ كرضوان اليوسف حين شعر أنه في العتمة ما من أحد يراقبه أثناء لقائه ذاك الذي جمعه مع خصمه بالشطرنج.

كانت السيارات على الجسر كأنها تسير من تلقاء نفسها، وكان رصيف المشاة على جانبي الجسر خالياً من الناس، و لم أسمع أي صوت يصدر من أبواق السيارات، وضعتُ ساعدي فوق الحديد الذي يمتد على جانبي الجسر، ووضعتُ أسفل ذقني فوق ساعدي ورحتُ أنظر نحو أسفل الجسر، شجيرات متشابهة على امتداد الحد الفاصل بين طريقَي الذهاب والإياب، وسيارات لا أعرف بماذا يفكر أصحابها وهم خلف المقْوَد.

إن الذي في الأسفل يدرك معنى السقوط أكثر من الذي في الأعلى، والسقوط شيء يختلف عن الانتحار، فالمنتحر ينتحر بدافع الألم الذي سبّبه الآخرون له، ولحظات تقرير الانتحار تكون قد اتخذتْ مكانتها في باطن المنتحر قبل شروع المنتحر على الانتحار، أما الذي يريد السقوط فإنه يسقط دون دافع ودون أي إحساس يدفعه نحو السقوط، كل ما في الأمر أنه يسقط، ولن يرى سقوطه هذا لأنه سقوط لا يتجاوز اللحظة، وهذه اللحظة لن تصل إلى الدماغ، ولن تصل إلى القلب، ولن تصل إلى كل ما

هو معنيّ بالإدراك، وذلك بسبب الكثافة الهائلة التي تحمله هذه اللحظة، لحظة دون قرار ودون تنفيذ رغم الذي سيحدث.

وكانت روحي على يقين كامل في أن المسافة التي سأهوي فيها ليس فيها أي شيء من تلك الأشياء التي اعتدناها في حياتنا، وكلّ ما فيها هو هذا الهواء الموزع بكثافة، وهذا الفراغ الذي لا تملؤه إلا كتلة جسد تهوي فيه، وروح متخمة بما تناولَتْه من النهارات والليالي المُتعاقبة دون توقف.

وأنا أتسلق جبلاً من ذاتي وسط كل ما يحط بي ظلت روحي تمحو لي ما تبقى من ذرات إدراكي ذرة ذرة، وكان هذا الأمر يتم بدقة متناهية كدقة الموت في التصويب في أدق الخلايا وأبعدها.

– افعلها يا جابر، واسقط الآن لتعيق سير هذه السيارات تحت الجسر بعض الوقت، ولِتوقف تفكير كل الذين في أسفل الجسر وأعلاه ولتحولهم من ناس إلى صورة فوتوغرافية، وهم ينظرون في تفاصيل وجهك المُهشّم على الإسفلت.

افعلها يا جابر، وانثر كليتك ذراتٍ في هذه العيون بكافة ألوانها.

الآن يا جابر، فإنّ روحك ميتة منذ زمنٍ طويل، فاسقط لتمنحها شيئاً من الفرح دون أن تشعر أنك أخذتَ أوكسجين غيرك.

لم يكن هذا الصوت صوتي بقدر ما كان صوتَ غيري، كان صوتاً خفياً يصب بداخلي دون أن أدرك حقيقة نشأته.

راحتْ كريات دمي تجرّ بعضها بعضاً كسرب فراشات نحو الأعلى، وراح نصفي الأعلى يزداد وزناً، ونصفي الأسفل يفقد وزنه شيئاً فشيئاً، وبدأ حديد الجسر ينزلق نحو أسفل بطني، وصدري يبتعد عن هذا الحديد

ويميل كقوس قزح، وبكثير من اللهفة تعانقا حديد الجسر وقطعة الحديد التي تتوسط بنطالي، وكان هذا العناق قد أثار سخط ما يجري من ميلٍ نحو الأسفل.

في اللحظة التي تَعَانَق فيها حديد الجسر وقطعة حديد حزام بنطالي سقطتْ عيناي عدة سقطات نحو الأسفل، ومشطتْ كلّ ما يمكن تمشيطه في الأسفل من رؤية، عادتْ إحدى هذه السقطات إليّ لاهثة لتخبرني أن الأمر على ما يرام، وكلّ الماء ينتظرني في أسفل الجسر، وشكل الهواء النقي من حولي إناءً زجاجياً شفافاً يفصلني عن كلّ لون أدركَتْه عيناي من قبل، شلال لون مولود لتوّه راح ينصب في هذا الإناء، ما عاد يفصلني عن السقوط سوى وزن خفيف في رؤوس أصابع قدمي، وراح فضول أصابع قدمي يرتفع شيئاً فشيئاً كعبيد يسترقّون النظر من ثقوب الأبواب الخلفية حالمين بالخلاص، أَطَلَقَ السقوطُ صيحاته لي من أسفل الجسر بكلّ نبراته، وكان ما يعتريني من شعور يفوق أيّ شعور آخرَ في هذه اللحظات، تضخّم شيء ما في إصبعَي إبهام قدمي، كان تضخماً يشبه نمو جذور على عجلٍ في باطن الأرض، وكأنّ هذين الإصبعين قد دُقّتا بعدة مسامير على الأرض لمنعهما من الانزلاق للوراء، لم أسقط وبذات الوقت لم أنجُ من الحياة، وشعرتُ برغبة جامحة في الذهاب إلى تلك الصخرة المزروعة فوق ذلك المرتفع البسيط كيً أجلس عليها وأبول وأنا أفكر بالتبرع بكِلْيَتي.

صيف 2009/ شتاء 2010